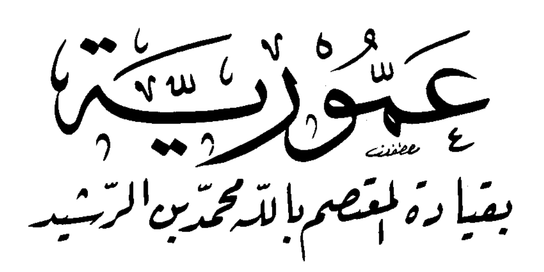
شوقي أبو خليل



دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٧٩١
الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م

سورية ـ **دمشق** ـ شارع سعد الله الجابري ـ ص.ب (٩٦٢) ـ برقياً: فكر
س . ت ٢٧٥٤ هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ ـ تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست): المطبعة العلمية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

عمورية

بقيادة المعتصم بالله محمد بن الرشيد



تصدير

الحمد لله ربِّ العالمين وكفى ، والصلاة والسَّلام على خاتم النَّبيِّين محمَّد الَّذي اصطفى ، وبعد :

إن من الثابت تاريخياً الصِّلة بين بَابَك الخرّمي وتيوفيل إمبراطور الروم ، وهي صلة عداء لهذه الأُمَّة وحقد عليها وكيد لها ، كان آخرها عندما سيَّر المعتصم بالله جيشه لمحاصرة « البَذِّ » عاصمة بَابَك ، فكتب بَابَك إلى تيوفيل يحثُّه ويغريه بغزو الثُّغور والعواصم العربيَّة ، مستغلاً وجود جيش الخلافة العباسيَّة حول « البَذِّ » ، وانشغاله في محاربة البابكيِّين : « إنَّ ملك العرب قد جهَّز إليَّ جمهور جيشه ، ولم يبقَ في أطراف بلاده من يحفظها ، فإن كنتَ تريد الغنيمة فانهض سريعاً إلى من حولك من بلاده فخذها ، فإنَّك لا تجد أحداً يمانعك عنها » .

فهاجم تيوفيل زِبَطْرَة ، وأسر أهلها وخرَّبها وأحرقها ، ثم مضى من فوره إلى مَلَطْية مغيراً على أهلها ، وعلى أهل الثُّغور العربيَّة

الإسلاميَّة . وسبى من النِّساء المسلمات أكثر من ألفِ امرأة ، ومثَّل بمن صار في يده من المسلمين ، وسمل أعينهم ، وقطع آذانهم وأنوفهم ، فكان الرَّد الحاسم فتح عَمُّورِيَّة ، عندما علم المعتصم بصيحة الهاشميَّة التي نادت : وامعتصماه ، وامعتصماه .

☆ ☆ ☆

وفي هذا الجزء من « المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام » قدَّمنا :

ـ سيرة المعتصم بالله ، أبي إسحاق ، محمَّد بن الرَّشيد ، ثامن الخلفاء العباسيين ؛ الخليفة الفارس ، والمقاتل الشُّجاع ، ذي الهمَّة والنخوة .

ـ وقضاء المعتصم على الحركة البابكيَّة ، بعد فتح عاصمتها « البَذّ » ، وذلك سنة ٢٢٢ هـ .

ـ وكيف وضع المعتصم حدّاً لغدر تيوفيل ، الَّذي دمَّر زِبَطْرة ومَلَطْيَة ، مستغلاً إحاطة الجيش العربي بالبَذّ ، وكيف هبَّ المعتصم ملبِّياً نداء الهاشميَّة ، ثائراً لها بتدمير عمُّوريَّة ، وإنقاذها ومَنْ معها من يد الرُّوم البيزنطيين ، وهذا يذكرنا بقصيدة الشَّاعر العربيّ الكبير عمر أبي ريشة ، بعد نكبة ١٩٤٨ ، والتي مطلعها :

أُمَّتي هل لكِ بينَ الأُممِ ... منبرٌ للسَّيفِ أَو للقلمِ
أتلقّاكِ وطرفي مطرقٌ ... خجلاً من أمسِكِ المنصرمِ

والتي جاء فيها :

(ألإسرائيـل) تعلـو رايـــةٌ ... في حمى المهـــدِ وَظـــلِّ الْحَرَمِ
كيف أغضيتِ على الـــذُّل ولم ... تنفضي عنـــكِ غبـــارَ التُّهمِ
أوَ مـا كنتِ إذا البغْي اعتـدى ... مــوجـــــة من لهب أو من دمِ
فيم أقــدمتِ ؟ وأحجمت ؟ ولم ... يشتفِ الثـــــأرُ ولم تنتقمي
اسمعي نــوْحَ الحــزانى واطربي ... وانظري دمـع اليتـامى وابسمي
واتركي الجرحى تـداوي جرحهـا ... وامنعي عنهـــا كريمَ البَلْسَمِ
ودعي القـــادةَ في أهــوائهـا ... تتفـــــانى في خسيس المغنمِ
رُبَّ (وامعتصماه) انطلقت ... مـلءَ أفـواه البنـــات اليُتَّمِ
لامست أسماعَهُم لكنهــــــا ... لم تـــلامس نخـــوة المعتصمِ
لا يُـلام الـذِّئب في عـدوانِـهِ ... إن يَــكُ الرَّاعي عـــدوَّ الغنمِ

☆ ☆ ☆

فإلى أحداث عمُّوريَّة على بركة الله ، فهو من وراء القصد ، ولـه الحمد أولاً وآخراً .

دمشق : ١٥ رمضان المبارك ١٤٠٨ هـ
الموافق ١ أيَّــار « مايو » ١٩٨٨ م

شوقي أبو خليل

المعتصم بالله

☆ أهل بغداد للمعتصم : تحوّل عنّا وإلاّ قاتلناك ، قال : وكيف تقاتلوني وفي عسكري ثمانون ألف دارع ؟! قالوا : نقاتلك بسهام الليل ، وسهام الأسحار ، فقال : لا طاقة لي بذلك .

إنّه أبو إسحاق محمد بن الرَّشيد ، « المعتصم بالله »[(١)] ، ولد سنة ١٧٨ هـ على أرجح الأقوال[(٢)] ، أُمُّه أم ولد تركيَّة اسمها ماردة بنت شبيب ، كانت من أحظى الناس عند الرَّشيد[(٣)] .

بويع له في اليوم الَّذي كانت فيه وفاة أخيه المأمون بطَرَسوس[(٤)] ، يوم الخميس ١٢ رجب ٢١٨ هـ[(٥)] ، وهو يومئذ ابن ثمان وثلاثين سنة وشهرين .

---

(١) وهو أوَّل من أضاف من الخلفاء اسمه إلى اسم الله تعالى ، صبح الأعشى ٤٧٧/٥ ، مآثر الإنافة ٢٣/١ و ٢١٧

(٢) ومن المؤرخين من ذكر ولادته سنة ١٨٠ هـ .

(٣) تاريخ بغداد ٣٤٧/٣ ، مروج الذهب ٤٦/٤ ، تاريخ الخلفاء ٣٣٣ ، العقد الفريد ١٢١/٥ ، مآثر الإنافة ٢١٧/١

(٤) طَرَسُوس : من الثغور في آسية الصغرى ، معجم البلدان ٢٨/٤

(٥) وفي قول : يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب ٢١٨ هـ .

وكان المعتصم « ذا شجاعة وقوة وهمَّة »[1] ، فقوَّته خارقة هائلة ، يحمل أرطالاً تعجز عنها الرجال ويمشي بها خطوات ، ويثني الحديد مرات بعد عجز الأبطال عنه ، وهو فارس مقاتل من الطراز الأوَّل ، ففرسان قريش ابتدأت بالحمزة بن عبد المطلب ، وانتهت بالمعتصم[2] .

ذكر أحمدُ بن أبي دُوَاد[3] المعتصم يوماً فأسهب في ذكره ، وأكثر من وصفه ، وأطنب في فضله ، وذكر سعة أخلاقه وكرم أعراقه ، وطيب مركبه ، ولين جانبه ، وجميل عشرته ، ورضى أفعاله ، وقال : قال لي يوماً ونحن بعمُّوريّة : ماتقول يا أبا عبد الله في البسر[4] ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين نحن ببلاد الرُّوم ، والبسر بالعراق ! قال : قد وجهتُ إلى مدينة السَّلام فجاؤوني بكبَّاستين[5] ، وقد علمتُ أنكَ تشتهيه ، ثمَّ قال : يا ايتاخ ، هاتِ

(١) تاريخ الخلفاء ٣٣٤ ، ابن خلدون ٢٥٦/٣ ، الكامل في التاريخ ٢٣١/٥ ، مروج الذهب ٥١/٤ ، وفيات الأعيان ٦٤/١

(٢) ففي « كتاب المنمَّق في أخبار قريش » لمحمد بن حبيب البغدادي ، طبعة حيدرآباد ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، ص ٥٢٨ تحت عنوان : فرسان قريش ، جاء الحمزة أوَّلهم ، وانتهى المؤلف بالمعتصم « أمير المؤمنين » .

(٣) أحمد بن أبي دُوَاد بن جرير بن مالك الإيادي [١٦٠ ـ ٢٤٠ هـ = ٧٧٧ ـ ٨٥٤ م] ، قاضي قضاة المعتصم ، الأعلام ١٢٤/١

(٤) البُسْرُ : التمر قبل أن يُرْطِبَ لغضاضه ، واحدته بُسْرَة ، [اللِّسان : بسر] .

(٥) الكِباسة : العِذق التَّام بشماريخه وبُسْرِه ، وهو من التمر بمنزلة : العُنْقود من العنب ، [اللِّسان : كبس] .

إحدى الكبَّاستين ، فجاء بكباسة بسر ، فمدّ ذراعه وقبض عليها بيده ، وقال : كل بحياتي عليك من يدي ! فقلت : جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين ! بل بعضَها فآكل كما أُريد ، قال : لا والله إلَّا من يدي . فوالله ما زال حاسراً ذراعه ومادّاً يده وأنا أجتني من العِذْق حتَّى رمى به خالياً ما فيه بسرة [(١)] .

وكان ابن أبي دُوَاد يقول أيضاً : كان المعتصم يُخْرِج ساعده إليَّ ويقول : يا أبا عبد الله عض ساعدي بأكثر قوّتك ، فأقول : والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك ، فيقول : إنَّه لا يضرني . فأروم ذلك ، فإذا هو لا تعمل فيه الأسِنَّة فضلاً عن الأسنان [(٢)] .

وكان المعتصم مع هذا كله إنساناً شفوقاً ؛ قال المسعودي [(٣)] : عبر المعتصم من مدينة سُرَّ من رأى من الجانب الغربي ـ وذلك في يوم مطير ، وقد تبع ذلك ليلة مطيرة ـ وانفردَ من أصحابه ، وإذا حمار قد زلق ورمى بما عليه من الشَّوك ، وهو الشَّوك الَّذي توقد به التنانير بالعراق ، وصاحبه شيخ ضعيف واقف ينتظر إنساناً يمرّ فيعينه على حمله ، فوقف عليه ، وقال : مالك يا شيخ ؟ قال :

---

(١) تاريخ بغداد ٣/٣٤٥

(٢) تاريخ بغداد ٣/٣٤٦ ، مروج الذهب ٤/٥١ ، مآثر الخلافة ١/٢١٨ ، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٣/٣١٧

(٣) مروج الذهب ٤/٥١

فديتك ! حماري وقع عنه هذا الحِمْل ، وقد بقيت أنتظر إنساناً يعينني على حمله ، فذهب المعتصم ليخرج الحمار من الطين ، فقال الشيخ : جعلت فداك ! تفسد ثيابك هذه وطيبك الَّذي أشمّه من أجل حماري هذا ؟ قال : لا عليك ، فنزل واحتمل الحمار بيد واحدة وأخرجه من الطين ، فبهت الشيخ وجعل ينظر إليه ويتعجَّب منه ، ويترك الشغل بحماره ، ثم شَدَّ عنان فرسه في وسطه ، وأهوى إلى الشوك وهو حُزْمَتان فحملها فوضعها على الحمار ، ثم دنا من غدير فغسل يديه واستوى على فرسه . فقال الشيخ : رضي الله عنك ، فديتك يا شاب ! وأقبلتِ الخيولُ ، فقال لبعض خاصته : أعْطِ هذا الشيخ أربعة آلاف درهم ، وكن معه حتَّى تجاوز به أصحاب المسالح[1] ، وتبلغ به قريته[2] .

ويقال للمعتصم : « الْمُثَمَّن » لأن أموره كلها جرت على ثمانية ؛

---

(١) المسالح : مواضع [اللّسان : سلح] .

(٢) وعلّق المستشرق ميور في كتابه «The Caliphate P.519» على عمل المعتصم هذا ، موازناً بينه في هذا العمل ، وما فعله في عمورية ، فقال : « ولقد رأى المعتصم من الشّرف أن يضحي بمدينة زاهرة يبلغ سكانها مئتي ألف نسمة ، وتقدّر ثروتها بالملايين ، ومع ذلك فقد نزل هذا الخليفة عن صهوة جواده ، ولوّث رداءه ، ليخلّص شيخاً ضعيفاً وقع حماره في حفرة من الطين ، وأي هذه الأفعال قد ذكرها بالسّرور والغبطة حين ناداه ملك الموت ؟ » [تاريخ الإسلام ٢/٧٩] ، ونسي ميور أن عمل المعتصم بعمورية معاملة بالمثل لما فعله الرُّوم بزبطرة .

فهو ثامن الخلفاء من بني العباس ، والثامن من ولد العباس[1] ، وثامن أولاد الرشيد ، ومَلَكَ سنة ثماني عشرة ومئتين ، ودامت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، ومولده سنة ثمان وسبعين ومئة ، وعاش ثمانياً وأربعين سنة ، وطالعُهُ (العَقْرَبُ) وهو ثامن بُرْج ، وفتح ثمانية فتوح ، وقتل ثمانية أعداء ، وخلَّف ثمانية أولاد ، ومن الإناث كذلك ، ومات في سُرَّ من رأى لثمان بقين من ربيع الأوَّل[2] .

وأحبّ المعتصم العمارة ، وكان يقول : إنَّ فيها أُموراً محمودة ، فأوَّلها عمران الأرض الَّتي يحيي بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتَّسع المعاش ، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه[3]

وله شعر لا بأس به ، وكلمات فصيحة ، منها : إذا نصر الهوى بطل الرأي ، من طلب الحق بما لَهُ وعليه أدركه ، وقال عند

---

(١) فهو : المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .

(٢) مآثر الإنافة ٣٥٨/٣ ، تاريخ بغداد ٣٤٢/٣ ، العقد الفريد ١٢١/٥ ، تاريخ الخلفاء ٣٣٤ ، شذرات الذهب ٦٣/٢ ، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ٣١٤/٢٢

(٣) مروج الذهب ٤٧/٤

احتضاره : اللَّهم إنك تعلم أني أخافك من قِبَلي ، ولا أخافك من قبلك ، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي[1] .

غير أنه إذا غضب لا يبالي من قتل .

وكان يقول : قد علمت أني دون إخوتي في الأدب ، لحبّ أمير المؤمنين لي ، وميلي إلى اللَّعب وأنا حدث ، فلم أنل ما نالوا . وسبب ذلك أنَّه كان مع المعتصم غلام في الكُتَّاب يتعلَّم معه ، فمات الغلام ، فقال له الرَّشيد : يا محمد مات غلامك ، فقال : نعم يا سيدي واستراح من الكُتَّاب ، قال الرَّشيد : وإن الكُتَّاب ليبلغ منك هذا المبلغ ؟! دعوه حيث انتهى ، لا تعلِّموه شيئاً[2] ، لذلك ورد : « كان يكتب كتابة ضعيفة ، ويقرأ قراءة ضعيفة » ، وإن ورد في مصادر أخرى : « وكان أُميّاً لا يقرأ ولا يكتب » ، كما في مآثر الإنافة في معالم الخلافة (٢١٨/١) : كان أُميّاً لا يحسن الكتابة ، ضعيف البصر بالعربيَّة ، ويقال إن سبب ذلك أنه رأى جنازة بعض الخدم يوماً فقال : ليتني مثل هذا حتَّى أتخلَّص من الكُتَّاب ، فقال له أبوه الرشيد : واللهِ لا عَذَّبتُكَ بشيء تختار عليه الموت . ومنعه عن الكُتَّاب منذ يومئذ .

---

(١) تاريخ الخلفاء ٣٣٦ و ٣٣٧

(٢) تاريخ بغداد ٣٤٣/٥

وفي العقد الفريد (٢/٤٤٠) : قال هارون الرَّشيد لابنه المعتصم : مافعل وصيفك ؟ قال : مات فاستراح من الكُتَّاب ، قال : أوَ بلغ منك الكُتَّاب هذا المبلغ ؟! والله لا حضرته أبداً ، ووجَّهه إلى البادية ، فتعلَّم الفصاحة ، وكان أُميّاً[1] .

والمعتصم أوَّل من أكثر من شراء الغلمان الأتراك ، لاستخدامهم في الحرس والجيش ، وكان أخوه المأمون قد سبقه إلى ذلك ، ولكن على نطاق ضيِّق ، وبنى سُرَّ مَنْ رَأى بعد أن أساء هؤلاء الغلمان الأتراك إلى الناس كثيراً[2] ، فشكا أهل بغداد ذلك للمعتصم ، وقالوا له : تحوَّل عنا وإلا قاتلناك ، قال : وكيف تقاتلوني وفي عسكري ثمانون ألف دارع ! قالوا : نقاتلك بسهام الليل ، وسهام الأسحار ، فقال : لا طاقة لي بذلك[3] .

وركب يوم عيد ، فقام إليه شيخ فقال له : يا أبا إسحاق ، فقال : يا شيخ ، مالك مالك ؟ قال : لا جزاك الله عن الجوار خيراً ، جئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك ، فأسكنتهم بيننا ، فأيتمت صبياننا ، وأرملت بهم نسواننا ، وقتلت رجالنا . والمعتصم

(١) ومع ذلك ، قال إبراهيم بن العباس : كان المعتصم إذا تكلَّم بلغ ماأراده وزاد عليه .

(٢) الكامل في التاريخ ٢٣٦/٥ ، تاريخ الخلفاء ٣٣٥ . قال ابن خلدون ٢٥٧/٣ : « وربما انفرد بعضهم ـ بعض العسكر الأتراك ـ فقتلوه » .

(٣) النجوم الزاهرة ٢٣٣/٢ ، معجم البلدان ١٧٤/٣ ، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٣١٩/٢٣

يسمع ذلك ، فبعد أن صلى بالناس العيد ، لم يدخل بغداد ، بل سار إلى ناحية القاطول[1] ، بعد أن سأل : أين كان الرشيد يتنزَّه إذا ضجر من المقام ببغداد ؟ قالوا : بالقاطول . وكان ابتداءُ العمارة بسرّ من رأى سنةَ إحدى وعشرين ومئتين للهجرة[2] .

وكان نَقْشُ خاتمه : الله ثقة أبي إسحاق بن الرشيد وبه يؤمن[3] .

وكانت وصية المأمون لأخيه المعتصم : احمل الناس على القول بِخَلْقِ القرآن[4] ، والْخُرَّمِيَّة فاغزهم بقوة وحزم وجَلَد ، واحشد لهم الأموال والسِّلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، « فإن طالت مدَّتهم فتجرَّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك عمل مقدم النيَّة فيه راجياً ثواب الله عليه » .

لذلك انصبَّت جهود المعتصم ، وأموال الخلافة ، على قضية الدولة الأُولى ، ألا وهي قطع مخلب بابَك ، وبتر يده ، فكان يخشى أن تطول فتنته لتعمّ بلاد فارس .

---

(١) القاطول : نهر على سامراء كان احتفره الرشيد ، وبنى عليه قصراً .

(٢) سميت « سُرَّ من رأى » العسكر لأن المعتصم سكنها بعسكره [تاريخ بغداد ٣٤٦/٣] ، أو العسكرية أيضاً كما في [وفيات الأعيان ٩٥/٢] .

(٣) مآثر الإنافة ٢١٩/١ ، العقد الفريد ١٢١/٥ ، وفي تاريخ الخلفاء ٣٣٧ : نقش خاتمه « الحمد لله الّذي ليس كمثله شيء »

(٤) مروج الذهب ٥٢/٤ ، مآثر الإنافة ٢٢٠/١ ، (وكان المعتزلة يقولون بذلك) .

بَابَكُ الْخُرَّمِي

وَالْخُرَّمِيَّة

☆ « من أبطال زمانه وشجعانهم ، عاث في البلاد وأفسد ، وأخاف الإسلام وأهله ، وغلب على أذربيجان وغيرها ، وأراد أن يقيم ملّة المجوس » .

بدأت حركة **بَابَك الْخُرَّمي**[1] أيام خلافة المأمون ، وذلك سنة ٢٠١ هـ ، **والْخُرَّمية** : فرقة متطوّرة عن المزدكية[2] ، تؤمن بصراع إله الخير وإله الشَّر . ادّعى بَابَك أن روح جاويدان[3] حلّت فيه ،

(١) بَابَك بن بهرام ، جاء في البداية والنهاية ٢٨٢/١٠ : « وكان زنديقاً كبيراً ، وشيطاناً رجيماً » .

(٢) والمزدكية ـ هم أتباع مزدك الذي عاش في أيام قباذ والد أنوشروان ، وأحلّ النساء وأباح الأموال ، وجعل النَّاس شركاء فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ « الملل والنِّحل ٢٤٩/١ » ـ تطوّرت عن الزردشتية والمانوية ، وتعتقد الزَّردشتيَّة أن للوجود إلهين « إله الخير ، وإله الشرّ » يتنازعان ، ثم دعا ماني إلى فناء الجنس البشري لأن الإنسان لعنة في الأرض ، والخطيئة باقية ببقائه .

(٣) كان بابَك يقوم بخدمة جاويدان بن سهرك أحد رؤساء الخرمية ، وتفسير جاويدان : الدائم الباقي ، ومعنى خرم : الفَرَج ، ولما توفي جاويدان أقامت امرأته بابَك مكانه ، وادّعت أنّ روحه حلّت في جسد بابك ، وأوعزت إلى من حولها بوجوب طاعته ، ثم تزوجت منه ، « تاريخ الإسلام ١٠٨/٢ ، الكامل في التاريخ ١٨٤/٥ » .

وأخذ في العبث والفساد في بلاد الرَّان ومنطقة أذربيجان ، متَّخذاً من قلعة البَذّ مقرّاً له .

ولم يكن بابك رجلاً عادياً ، لقد وُصِف بأنَّه « من أبطال زمانه وشجعانهم ، عاث في البلاد وأفسد ، وأخاف الإسلام وأهله ، وغلب على أذربيجان وغيرها ، وأراد أن يقيم ملَّة المجوس »[1] ، ومع ادعائه الألوهية ، أراد تحويل الْمُلْك من العرب المسلمين إلى الفرس ، فأثار ومن تبعه حرباً شعواء على الإسلام والعرب .

سيَّر المعتصم أبا سعيد محمد بن يوسف إلى أردبيل ، وأمره أن يبني الحصون الَّتي خرَّبها بَابَك في المنطقة ، فأعاد بناءها ، وشحنها بالرجال والأقوات لحفظ الطريق لمن يحمل الميرة إلى المنطقة[2] ، وتنبّه بَابَك إلى سلامة خطوة المعتصم هذه ، فوجَّه سريَّة أغارت على بعض النّواحي ، ولكن أبا سعيد اعترضها ، وقتل من الْخُرَّمية جماعة ، وأسر منها جماعة ، « فهذه أوّل هزيمة كانت على أصحاب بابَك »[3] .

وكانت الخطوة التالية لمحمد بن البعيث ، الذي كان في قلعةٍ له

(١) النجوم الزاهرة ٢٣٦/٢ ، وفي ص ٢٣٨ : « وكان بابَك يقول بتناسخ الأرواح ، ويستحلّ البِنْتَ وأمها » ، وفي الكامل في التاريخ ١٨٤/٥ : « والرجل منهم ينكح أُمَّه وأخته وابنته ، ولهذا يسمونه دين الفَرْج ، ويعتقدون بمذهب التناسخ ، وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره » .

(٢) الطبري ١١/٩ ، الكامل في التاريخ ١٨٤/٥ ، ابن خلدون ٢٥٨/٣ ، المسعودي ٥٥/٤

(٣) الطبري ١٢/٩

حصينةٍ تسمى « شاهي »[1] ، وكان يتظاهر بالطاعة لبابَك ، رهبـة من قوَّته وسطوته ، لا قناعة بفكره ومـذهبـه ، فـإذا تحركت سرايا بـابَـك نزلت عنده ، فيحسن ضيـافتهـا ، حتَّى أمِنُوهُ ، فسيَّر بـابَـك رجلاً من أصحابـه المقرَّبين ، يقـال لـه عصمـة[2] في سريَّـة ، فنزل بـابن البعيث ، فأرسل إليه ابن البعيث ـ على عادته المعهودة ـ الغنم والأرزاق .. وبعث إلى عصمة أن يصعد إليه في قلعته ، مع خاصَّته ونخبـة أصحـابـه ، فصعـد ليشهد مأدبة تليق بـه ، وسقـاه ابن البعيث ومن معـه حتى أسكرهم ، ثم وثب على عصمة فأوثقه ، وقتل كلَّ من كان معه من أصحـابـه ، وأمره أن يسمِّي رجلاً رجلاً من أصحـابـه بـاسمـه ، فكان يـدعى بـالرَّجل بـاسمـه فيصعد ، ثم يأمر به فيضرب عنقه ، حتَّى علموا بـذلـك فهربوا ، ووجَّـه ابن البعيث بعصمة إلى المعتصم .

وفي سامرّاء ، سأل المعتصم عصمة عن مسالك المنطقـة التي يسيطر عليها بَابَك ، فأعلمه بطرقها وشعابها[3] :

وفي سنـة ٢٢٠ هـ سيَّر المعتصم الأفشين[4] لقتـال بـابَـك ، وجهَّزه

---

(١) قلعة في شمالي شرق العراق ، لم نعثر عليها في معجم البلدان ، ولا في الروض المعطار .

(٢) في اليعقوبي ٤٧٣/٣ : « ثم مكر بعصمة الكردي صاحب مرند » .

(٣) « ثمَّ لم يزل عصمة محبوساً إلى أيام الواثق » .

(٤) الأفشين : حيـدر بن كاوس الآشروسني ، والأفشين لقب لملوك أشروسنـة ، وأشروسنـة : كورة من بلاد ماوراء النهر ، شرقيها فرغانة ، وغربيها سمرقند ، وشماليها الشَّـاس وبعض فرغـانـة ، وجنوبيها بعض حدود كش .. ومدينتها التي يسكنها الولاة « بنجكت » .

بـالرجـال والمـال الوفير ، وفي أذربيجـان كان الأفشين « إذا وقع بيـده أحد من جواسيس بَابَك يسألـه عن إحسـان بـابَـك إليـه ، فيضـاعفـه ويطلقـه »[١] ، « ولكن يهب لهم ويصلهم ويسـألهم مـا كان بـابَـك يعطيهم فيُضعفه لهم ، ويقول للجاسوس : كن جاسوساً لنا »[٢] .

وجرت موقعة بين الأفشين وبابَك بجبل « أرْشَق »[٣] ، قتل فيها الأفشين من أصحاب بابَك خلقاً كثيراً ، وهرب بَابَك إلى مُوقان ثم إلى حاضرته البَذّ ، وكان سبب هذه الموقعة أن المعتصم وجَّه مع بُغَـا الكبير مالاً إلى الأفشين ، عطاءً لجنده وللنفقات ، فقدم بغا بـذلـك المـال إلى أردبيل ، فلما بلغ بابَك وأصحابه خبره ، تهيّـأ ليقطع على بغـا قبل أن يصل إلى الأفشين[٤] .

وقدم جاسوس على الأفشين ، وأخبره أن بُغا قد قـدم بمـال ، وأن بَابَك وأصحابه تهيَّؤوا ليقطعوا عليه طريقه ، قبل وصوله إليك .

واستوثق الأفشين من الخبر ، فحذَّر بُغَـا ، وركب لملاقـاة بَـابَـك ومن معـه . وتمكَّن الأفشين أن يفوِّت عليـه خطَّتـه ، « فلم يفلت من

---

(١) ابن خلدون ٢٥٨/٣

(٢) الطبري ١٣/٩

(٣) أرْشَقُ : جبل بأرض مُوقان من نواحي أذربيجان عند البذ مـدينـة بـابَـك الْخُرَّمي ، « معجم البلدان ١٥٢/١ » .

(٤) الطبري ١٤/٩ ، الكامل في التاريخ ٢٣٧/٥

رجالة بَابَك أحد ، وأفلت هو في نفر يسير من خيالته »[1] .

وصل المال إلى الأفشين ، فأعطى الجند عطاءهم ، وتجهّز سنة ٢٢١ هـ للسَّير إلى البَذّ ، فسيَّر بُغا قبله ، ثم أمدَّه وأمره أن يغزو بَابَك في يوم حدَّده له ، « ويأمره أن يغزوه في ذلك اليوم بعينه »[2] ، ولكن سوء الحالة الجويَّة منعه من ذلك ، « وساءت حال الجند ، ففرَّق الأفشين النَّاس في مَشاتيهم تلك السَّنة ، حتَّى جاء الرَّبيع سنة ٢٢٢ هـ »[3] .

واستطاع الأفشين في شتاء ٢٢١ هـ ترصُّد قائدٍ لبَابَك اسمه طَرْخان ، الَّذي كان عظيم المنزلة عند بَابَك ، والَّذي كان يشتُو في قرية له بناحية الْمَراغَة[4] ، فكتب الأفشين لبعض رجاله[5] ، أن يقتل طرخان ، أو يبعث به إليه أسيراً ، فقتله وبعث برأسه إلى الأفشين .

☆ ☆ ☆

---

(١) الكامل في التاريخ ٥/٢٣٥

(٢) الطبري ٩/٢٤

(٣) الكامل في التاريخ ٥/٢٣٩

(٤) مَرَاغَةٌ : أعظم وأشهر بلاد أذربيجان ، « معجم البلدان ٥/٩٣ » .

(٥) واسمه « تُرْك » ، وهو مولى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، الطبري ٩/٢٨ ، ابن خلدون ٣/٢٥٩ ، الكامل في التاريخ ٥/٢٣٩

فَتْحُ البَذِّ

☆ « يـا أيُّهـا الأمير ، لاتحرمنـا شهـادةً إن كانت قـد حضرت ، وإنَّما قصدنـا وطلبنـا ثواب الله ووجهه ، فـدعنـا وحـدنـا حتَّى نتقـدَّم بعد أن يكـون بـإذنـك ، فلعـلّ الله أن يفتـح علينا » .

وفي ربيع سنة ٢٢٢ هـ ، وجَّه المعتصم جعفراً الخيـاط بـالعسـاكر والمال . وكان فتح البـذ[١] ـ مـدينـة بَـابَـك ـ يوم الجمعـة ٢٠ رمضـان ٢٢٢ هـ[٢] .

ومن الملاحظ ، أن الخلافـة العبـاسيـة وضعت تحت إمرة الأفشين ـ وهو خيرة قوادها ـ كاملَ إمكاناتهـا المـاديَّـة ، وحشـدت لبَـابَـك كلَّ طاقاتها ، ومع ذلك تأخر الفتح ، لقد عرقل سرعة القضـاء على بَـابَـك أمران :

---

(١) بَذٌّ : (بتشديد الذال المعجمة) كورة بين أذربيجان وأرَّان ، « معجم البلدان ٣٦١/١ » .

(٢) ٢٦ نيسان سنة ٨٣٧ م كان فتح القلعة « دائرة المعارف الإسلاميَّة » ٢٤٦/٣

١ ـ وعورة المنطقة ، ومنعة حصونها ، وطبيعة الأرض التي تساعد على إقامة الكمائن : « وكان بَابَك إذا أحسَّ بمجيئهم وجَّه جمعاً من أصحابه ، فيكمنون في واد .. »[1] ، « وكان يفرِّق عساكره كميناً ، ولم يبق إلاَّ في نفر يسير »[2] ، « وكان يعلم أن بَابَك يكمن تحت ذلك الجبل »[3] . واجتهد الأفشين أن يعرف مكان كمين بَابَك ، فلم يعلم بهم .. « ووثب كمين بَابَك ببشير التُّركي والفراغنة فحاربوهم .. »[4] .

إذاً طبيعة الأرض الجبلية ، ومسالكها الصعبة ، سهَّلت على بَابَك بثّ الكمائن لمفاجأة الأفشين وجنده ، وعرقلة تقدُّمهم ، وإيقاع الخسائر الكبيرة بين صفوفهم .

٢ ـ المناخ البارد المطير ، « فلم يكن للنَّاس عليها صبر لشدَّة البرد وشدة الريح »[5] ، « فجاءهم في تلك اللَّيلة سحاب وبرد ومطر وثلج كثير فلم يقدر أحد حين أصبحوا أن ينزل من الجبل يأخذ ماء ، ولا يسقي دابة من شدة البرد ، وكثرة الثلج ، وكأنَّهم كانوا في ليل من شدَّة الظُّلْمَة والضباب »[6] .

---

(١) الكامل في التَّاريخ ٢٤٠/٥

(٢) الكامل في التَّاريخ ٢٤٤/٥

(٣و٤) الكامل في التَّاريخ ٢٤٣/٥

(٥) الكامل في التَّاريخ ٢٣٨/٥ ، الطَّبري ٢٤/٩

(٦) الطَّبري ٢٥/٩

لذلك كانت الحرب تنشب بعد انقضاء فصل الشِّتاء ، فالثلوج كانت تمنع المشاة من التَّقدم .

ورأى الأفشين أن الحلَّ تضييق الحصار على بَابَك ، وقطع المؤونة والمدد عنه ، لذلك ورد : « فلما كان في بعض الأيام ، ضجرت الْخُرَّميَّة من المطاولة »[1] . وضجر جند الأفشين أيضاً ، ولَجُّوا عليه في التَّقدم ، وجاء رجل من المتطوِّعة ، ومعه صخرة فقال للأفشين : أتردنا ، وهذا الحجر أخذته من السُّور ؟ فقال : إذا انصرفت عرفت مَنْ على طريقك - يعني الكمين - ، وقال لجعفر : لو ثار هذا الكمين الذي تحتك ، كيف كنت ترى هؤلاء المتطوِّعة ؟ فالأفشين على يقين بما يعمل ، فلو تحرَّك هذا الكمين لهلك المسلمون عن آخرهم . لذلك سار ببطء وتؤدة ، وكانت علامته في المسير والوقوف ضرب الطُّبول لكثرة الناس ، ومسيرهم في الجبال والأودية ، فإذا سار ضربها ، وإذا وقف أمسك عن ضربها فيقف النَّاس جميعاً[2] .

لقد سار الأفشين محترساً ، ورتَّب أموره أدقّ ترتيب ، وأخذ يدنو من البَذِّ ببطء وحذر شديدين ، فقال الجند : أقدم بنا ، فإمّا لنا ، وإمّا علينا ، فقال للمتطوِّعة : مَنْ صبر منكم فليصبر ، ومن لم

---

(١) الكامل في التَّاريخ ٢٤١/٥

(٢) الكامل في التَّاريخ ٢٤٠/٥

يصبر فالطَّريق واسع فلينصرف بسلام ، ففي جند أمير المؤمنين المعتصم الكفاية ، أنا والله أعلم أن ما تقولون حقٌّ ، ولكن أمير المؤمنين أمرني بهذا ، ولا أجد منه بدّاً[1] ، فانصرف المتطوِّعة وهم يقولون : وهذا لا يشتهي إلاَّ المماطلة ، وقال بعضهم : يا أيها الأمير ، لا تحرمنا شهادةً إن كانت قد حضرت ، وإنَّما قصدنا وطلبنا ثواب الله ووجهه ، فدعنا وحدنا حتَّى نتقدَّم بعد أن يكون بإذنك ، فلعلّ الله أن يفتح علينا[2] .

فقال الأفشين : إنِّي أرى نياتكم حاضرة ، وأحسب هذا الأمر يريده الله ، وهو خير إن شاء الله ، وقد نشطتم ونشط النَّاس ، والله أعلم ما كان هذا رأيي ، وقد حدث السَّاعة لما سمعت من كلامكم ، وأرجو أن يكون أراد هذا الأمر وهو خير ، اعزموا على بركة الله أيَّ يوم أحببتم حتّى نناهضهم ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله .

وأرادَ الأفشين أن يثبت لهم أن إلحاحهم خطأ ، والتَّضييق على بَابَك في البَذِّ هو الصَّواب ، وأن الفتح لم يحن موعده بعد ؛ فزحف النَّاس - كما أرادوا وبإذن الأفشين - حتى وصلوا البَذّ ، وأمدّهم الأفشين بما أرادوا وشاؤوا من الناشبة والنفَّاطين ، واشتبكوا مع الْخُرَّميَّة ،

---

(١) وفي الكامل ٥/٢٤٠ : « فلم يلبث أن جاءه كتاب المعتصم يأمره أن يفعل كما كان يفعل » .

(٢) الطبري ٩/٣٨ ، ابن خلدون ٣/٢٦٠ ، الكامل في التَّاريخ ٥/٢٤٢

وطِيف عليهم بالمياه والأزواد ، وطرح الخرَّميَّة على المتطوِّعة من أعالي أسوارهم الحجارة ، فنالت منهم ، وبعد قتال شديد ، أيسوا من الفتح عندما طالت الحرب على باب أسوار البَذّ ، وفتحتِ الخرَّميَّة الباب ، وخرجوا على المتطوِّعة فنحُّوهم عنه ، فانصرف أكثرهم[1] .

وتابع الأفشين خطَّته : السَّير قليلاً قليلاً كلَّما جاءته عيونه[2] بخبر سارٍّ تقدَّم ، أو توقَّف وانتظر الفرص المناسبة في خنادق كان يأمر بحفرها ، واستطاع بعد أيَّام إرسال كتائبه ليلاً لتحيط بالبذِّ من كلِّ ناحية ، وجعل لها شارات وأعلاماً ، وأمرهم ألاَّ يعلم بهم أحد ، وأن يكمنوا ، حتّى إذا رأوا أعلامه وتقدُّمه ، ضربوا الطبول ، وانحدروا إلى البَذِّ ، ورمَوْا بالنَّشاب والصَّخر على الْخُرَّميَّة ، وإن هم لم يروا الأعلام لم يتحرَّكوا حتَّى يأتيهم خبره[3] ، وبدأت المعركة الفاصلة بأمر الأفشين على أبوابِ البَذِّ وأسوارِها .

لقد حقَّق الأفشين مراده ، عندما أحدق ببَابَك وضيَّق عليه من كلِّ الجهات ، وأدهش بَابَك إحكامُ الحصار عليه ، فخرج من البَذِّ من باب يقع قُبالة مقرّ قيادة الأفشين ، وأقبل عليه في جماعة معه ،

---

(١) الكامل في التّاريخ ٢٤٢/٥

(٢) تتكرّر في الطبري كلمة « الكوهبانيّة » ، مفردها كوهباني ، وهم أصحاب الأخبار والاستطلاع والرِّيادة .

(٣) الطبري ٤٢/٩ ، الكامل في التّاريخ ٢٤٢/٥

يسألون عن الأفشين ، فركب الأفشين إليه ، ودنا منه حتَّى صار في موضع يسمع كلامه ، « فوافقه وبينهما نهر »[1] ، والحرب مشتبكة في أطراف البَذِّ ، فقال بَابَك : أُريد الأمان من أمير المؤمنين المعتصم .

الأفشين : قد عرضتُ عليكَ هذا ، وهو لكَ مبذولٌ متى شئت .

بَابَك : قد شئتُ الآن ، على أن تؤجلني أجلاً أحمل فيه عيالي وأتجهَّز .

الأفشين : قد والله نصحتك غير مرَّة ، فلم تقبل نصيحتي ، وأنا أنصحك السَّاعة ؛ خروجك اليوم في الأمان خيرٌ من غد .

بَابَك : قد قبلت أيها الأمير ، وأنا على ذلك .

الأفشين : فابعث بالرَّهائن الَّذين كنت سألتك .

بَابَك : نعم ، أمَّا فلان وفلان فهم على ذلك التَّل ، فمر أصحابك بالتَّوقُّف[2] .

وفي هذه اللحظة ، جاء من المسلمين من قال للأفشين : دخلت أعلامنا البَذَّ ، ورفعت فوق قصور بَابَك ، وإن الخرميَّة تقاتل قتالاً شديداً ، فأُحضر النَّفَّاطون ، فجعلوا يهدمون القصور ، حتَّى قتلوا الْخُرَّميَّة عن آخرهم .

---

(١) اليعقوبي ٤٧٤/٢

(٢) الطبري ٤٤/٩ ، الكامل في التَّاريخ ٢٤٣/٥

وأخذ الأفشين أولاد بَابَك ومن كان معهم في البَذّ من عيالهم ، ولكن بَابَك وخواصه حملوا من الزّاد ما أمكنهم حمله ، وحملوا أموالهم ونفائسهم وهربوا ، « ومضى بَابَك على بغلة وقد لبس ثياب الصوف »[1] ، فكتب الأفشين إلى ملوك أرمينية وبطارقتها « بإذكاء العيون عليه في نواحيهم ، حتَّى يأتوه به »[2] ، لأنَّه هرب ومن معه باتجاه بلادهم .

واختفى بَابَك في وادٍ كثيف العشب والشَّجر ، طرفه بأرمينية ، وطرفه الآخر بأذربيجان ، لا تستطيع الخيل نزوله ، ولا يُرى من يستخفي فيه لكثافة غاباته ، وكثرة مياهه .

وبينما كان الأفشين يهدم قصور البَذّ ويحرقها[3] - فعل ذلك ثلاثة أيَّام حتَّى أحرق خزائنه وقصوره ، ولم يدع فيها بيتاً ولا قصراً إلاّ أحرقه وهدمه - ورد كتاب أمير المؤمنين المعتصم وفيه أمان لبَابَك ، وجاءت عيون الأفشين إليه فأعلموه بموضع بَابَك ، وعيَّنوا بدقة « غَيْضَةً » التجأ إليها ، واختفى فيها .

---

(١) اليعقوبي ٤٧٤/٢

(٢) ابن خلدون ٢٦١/٣

(٣) قال الحسين بن الضحاك :

لم يَدَعْ بالبَذِّ من ساكنِهِ ... غير أمثالٍ ، كأمثالِ إرَم

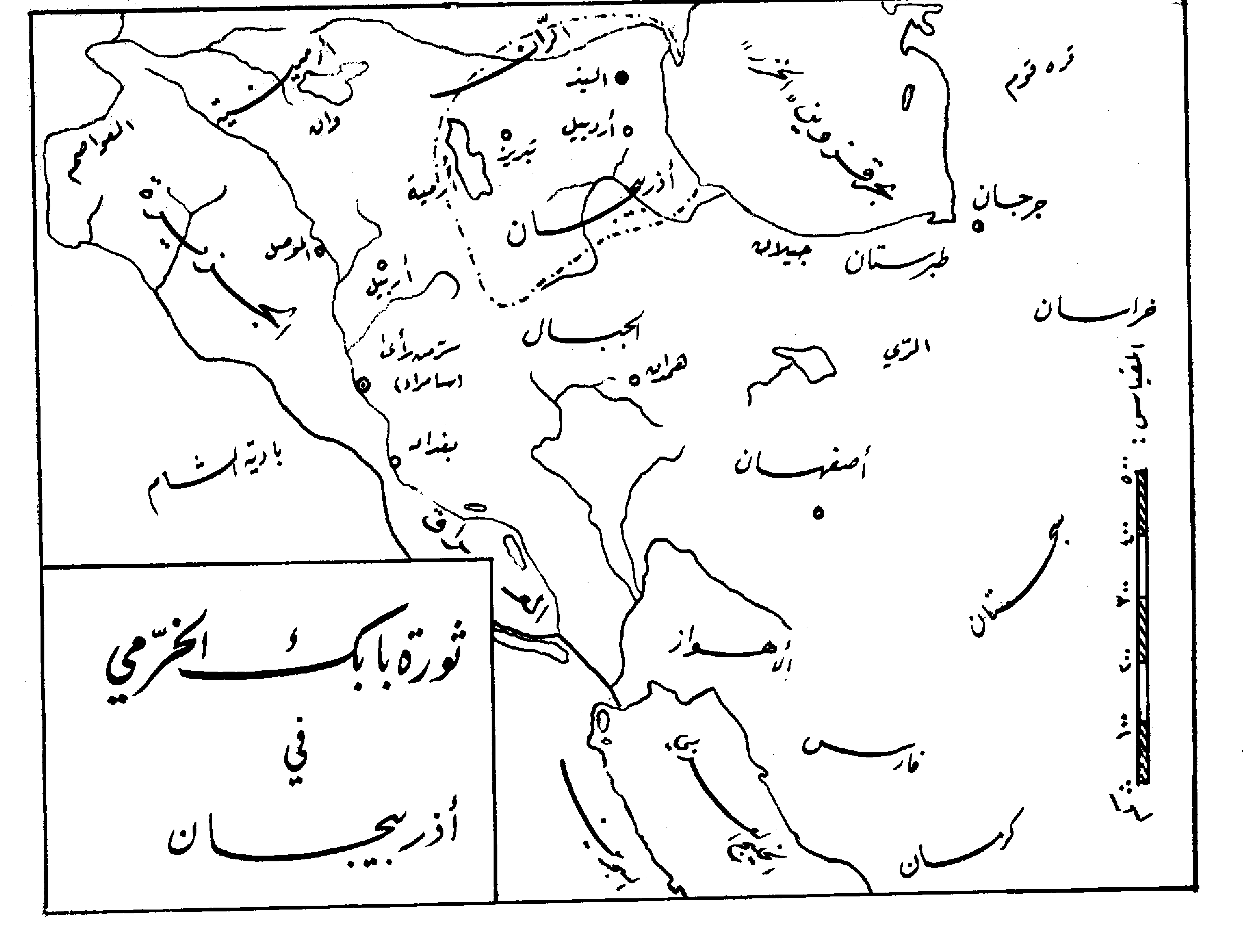
وقال أبو تمَّام :

فالبَذُّ أغبرُ دارسُ الأطلال ... لِيَدِ الرَّدى أُكُلٌ من الآكال

وقال البحتري :

لله دَرُّكَ يومَ بَابَك فارساً ... بطلاً لأبواب الحتوف قَروعا

حتَّى ظفرتَ ببذِّهم فتركتَهُ ... للذُّلِّ جانِبُهُ وكان منيعا


ثورة بابك الخرمي
في
أذربيجان
العواصم
الموصل
أرمينية
أران
البذ
أردبيل
تبريز
أرمية
أذربيجان
جرجان
قره قوم
طبرستان
خراسان
الري
الجبال
همذان
سر من رأى
(سامراء)
بغداد
بادية الشام
أصفهان
سجستان
الأهواز
فارس
كرمان
المقياس

نِهايَةُ بَابَك

☆ قد خُضِّبَ الفيلُ كعادتِـهِ
يحمـلُ شيطـــانَ خُراســـانِ
والفيــلُ لا تُخْضبُ أعضـــاؤهُ
إلاَّ لــذي شـــأنٍ من الشَّـــانِ

جاء كتاب المعتصم فيـه أمـان لبَـابَـك ، فـدعـا الأفشين من كان استأمن إليه من أصحاب بَابَك ، وفيهم أكبر أولاده ، فقـال لهم : هـذا مالم أكن أرجوه من أمير المؤمنين ، ولا أطمع لـه فيـه أن يكتب إليـه وهو في هذه الحال بأمان ، فمن يـأخـذه منكم ويـذهبُ بـه إليـه ؟ فلم يجسر على ذلك أحد منهم ، وقال بعضهم : أيُّها الأمير ، مـا فينـا أحـد يجترئ أن يلقاه بهذا .

فقال الأفشين : ويحك ! إنَّه يفرح بهذا .

قالوا : أصلح الله الأمير ! نحن أعرف بهذا منك .

الأفشين : فـلا بـدَّ لكم من أن تهبـوا لي أنفسكم ، وتـوصلـوا هــذا الكتاب إليه .

فقام رجلان أحدهما ابن بَابَك ، فقالا له : اضمن لنـا أنـك تجري على عيالاتنا ، فضمن لهما الأفشين ذلـك[1] . فسـارا إليـه ، إلى الغيضـة التي حددتها العيون .

وامتنع بَابَـك من قبول الأمـان ، وقتل الرَّجل المرافق لابنـه[2] ، وقال لابنه : قـد صحَّ عنـدي السَّـاعـة فسـادُ أُمِّـك الفـاعلـة ، يـا بن الفاعلة ، عسى أن أعيش بعد اليوم ! قد كنت باسم هـذه الريـاسـة ، وحيثمـا كنت ، أو ذكرت ، كنت مَلِكاً ، ولكنـك من جنس لا خير فيـه ، وأنـا أشهـد أنَّـك لست بـابني ، تعيش يـومـاً واحـداً وأنت أمير زعيم ، خير من أن تعيش أربعين سنـة وأنت عبـد ذليـل . فعـاد ابنـه برفض بَابَك وامتناعه عن قبول الأمان .

ورحل بَابَك من موضعه ، وسار ومن معـه في الجبـال مستخفيـاً يريـد عبور إرمينيـة ، واجتـازَهـا من شرقهـا إلى غربهـا[3] ، ليلحـق

---

(١) ابن خلدون ٢٦١/٣ ، الطبري ٣٦/٩ ، الكامل في التاريخ ٢٤٤/٥

(٢) في ابن خلـدون : « فـامتنع عن قبـولـه وقتـل بعضهم » ، ويفهم من هـذه العبـارة أن الـذين ساروا إلى بَابَك (جماعة) لا (اثنان) .

(٣) في الكامل في التاريخ ٢٤٤/٥ : « وقعد في موضعه ، فلم يزل في تلك الغيضة حتَّى فني زاده ، وخرج من بعض تلك الطرق ، وكان مَنْ عليه من الجنـد قـد تنحُّوا قريبـاً منـه وتركوا عليـه أربعة نفر يحرسونه ، فبينمـا هم ذات يوم نصف النَّهـار ، إذ خرج بَـابَـك وأصحـابـه ، فلم يروا العسكر ، ولا أولئك الذين يحرسون المكان ، فظنوا أن ليس هناك أحـد ، فخرجوا ، وسـاروا يريدون إرمينية مستخفين ، فاحتاجوا إلى طعام .. » .

بحليفه تيوفيل إمبراطور بيزنطة ، وكان جميع أمراء إرمينيـة وحكامها قد احتـاطوا بنواحيهم وأطراف أراضيهم وتحفَّظوا ، وأوصوا جنـدهم ألاَّ يجتـاز عليهم أحـد إلاَّ أخـذوه حتى يعرفـوه ، فكان الجنـد والحراس متحفظين متيقظين[1] .

وأصـاب بَـابَـك ومن معـه الجـوع ، وأشرف من مكانـه فـإذا هـو بحرّاث يحرث على فدان له في بعض الأودية ، فقال لغلامـه : انزل إلى هذا الحرَّاث ، وخـذ معـك دنـانير ودراهم ، فـإن كان معـه خبز فخـذه وأعطه .

ويروي الطبري إلقاء القبض على بَابَك قائلاً :

كان للحرّاث شريـك ذهب لحـاجتـه ، فعنـدمـا نـزل الغـلام إلى الحرّاث ، رأى الشريك من بعيد ، كيف أخذ الخبز ، فظنَّ أنَّما اغتصبه الغلام من الحرّاث ، ولم يخطر بباله أنّه أعطاه ثمنـه ، فعـدا إلى جنـد ، فأعلمهم أن رجلاً جاءهم ، عليه سيف وسلاح ، وأنه أخذ خبز شريكـه من الوادي ، فركب رئيس الجند ، ووجَّه إلى سهل بن سُنْبـاط ـ والي المنطقة[2] ـ بالخبر ، فركب ابن سُنبـاط وجمـاعـة معـه ، حتَّى جـاءه مسرعاً ، فوافى الحرّاث والغلام عنده ، فقال لـه : مـا هـذا ؟ فـأجـاب

---

(١) الطبري ٤٧/٩

(٢) في البداية والنهاية ٢٨٣/١٠ : « نائب للخليفة يقال له : سهل بن سُنباط » .

الحرّاث : هذا رجل مرَّ بي ، فطلب منّي خبزاً فأعطيته ، فقال للغلام : وأين مولاك ؟ فأجاب الغلام : ها هنا ، وأومأ إليه ، فاتَّبعه ابن سُنباط فأدركه ، فلما رأى وجهه عرفه ، فترجَّل له ابن سُنباط عن دابته ، ودنا منه فقبَّل يده ، ثم قال له - وأراد أن يعمّي عليه - : يا سيِّداه ، إلى أين ؟ قال بَابَك : أُريد أن أدخل بلاد الرُّوم ، فقال ابن سُنباط : إلى عند من تذهب أحرز من حصني ، وأنا غلامك وفي خدمتك ؟ لن تجد موضعاً ولا أحداً أعرف بحقِّك ، ولا أحقَّ أن تكون عنده مني ، تعرف موضعي ، وليس بيني وبين السلطان - يعني المعتصم - عمل ، وكلُّ مَنْ ها هنا من البطارقة إنما هم أهل بيتك ، قد صار لك منهم أولاد ، [وذلك لأن بَابَك كان إذا علم أن عند بعض البطارقة ابنة أو أختاً جميلة ، وجَّه إليه يطلبها ، فإن بعث بها إليه تركه آمناً ، وإلا أسرى إليه فأخذها ونهب ماله ومتاعه وغير ذلك ، وأسره وسار به إلى البذِّ أسيراً] .

ثم قال ابن سُنباط لبَابَك : صِرْ عندي في حصني ، فإنَّما هو منزلك ، وأنا عبدك ، كُنْ فيه شَتْوَتَك هذه ، ثمَّ ترى رأيك . وكان بَابَك قد أصابه الضُّرُّ والجهد ، فركن إلى كلام سهل بن سُنباط ، فأقام عنده في حصنه ، وكتب ابن سُنباط إلى الأفشين يعلمه أن بَابَك عنده في حصنه[1] .

(١) الطبري ٤٧/٩ و ٤٨

وعندما تيقَّن الأفشين من ذلك ، سيَّر لبَابَك رجلين ليحضراه ، وأمرهما أن يطيعا وجهات نظر ابن سُنباط . فاتفق ابن سُنباط مع الرَّجلين أن يكمنا في موقع محدَّد ، وسيخرج هو مع بَابَك للصيد ، عندها يأخذانِه مقيّداً ؛ قال ابن سُنباط لبَابَك : قد ضجرت من هذا الحصن ، فلو نزلت إلى الصَّيد ؛ فوافق ، وخرجوا في اليوم المحدَّد ، إلى المكان المحدَّد ومعهم بزاة وكلاب .

ولما نزل بَابَك من الحصن ، أرسل ابن سُنباط إلى رسولَيْ الأفشين ، وأمرهما أن يوافياه ، أحدهما من جانب وادٍ هناك ، والثَّاني من الجانب الآخر ، ففعلا[1] ؛ لأنَّه ماأراد أن يدفعه إليهما مباشرة ، فبينما بَابَك وابن سُنباط يتصيَّدان ، إذ خرج عليه الرَّجلان ، وأسرا بَابَك وقيَّداه ، فقال لابن سُنباط : قبَّحك الله ، فهلا طلبت مني من المال ماشئت ، كنت أعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء[2] .

وأحضر الرَّجلان بَابَك بحراسة دقيقة ، خوفاً أن يقتله إنسان ، أو يجرحه ، ممن قتل أهله ، أو أصابه ظلمُهُ وحَيْفُهُ ، وعندما وصل إلى الأفشين[3] سجنه ، وكتب إلى المعتصم بذلك[4] ، فكتب المعتصم إليه

---

(١) الكامل في التَّاريخ ٢٤٤/٥

(٢) البداية والنهاية ٢٨٤/١٠

(٣) في الكامل في التاريخ ٢٤٥/٥ : وصل إلى الأفشين في ١٠ شوال ٢٢٢ هـ .

(٤) استخدم حمام الزَّاجل مابين الأفشين وهو في أذربيجان ، والمعتصم في سامراء .

يأمره بالقدوم به عليه ، ومن عظم فرح المعتصم وعنايته واهتمامه بـأمر بَـابَـك ، رتَّب البريـد من سـامراء إلى الأفشين ، بحيث أن الخبر كان يـأتيـه من مسيرة شهر في أربعـة أيـام[1] ، الخيل المضمرة على رأس كلِّ فرسخ[2] أو فرسَخَيْن ، فيعـدو الفـارس بـالخيل حتى يـؤديـه لمن يليـه وهكذا .. « وكانت أخباره تفد إلى المعتصم في كلِّ يوم من شدَّة اعتنـاء المعتصم بأمر بَابَك »[3] .

ولما أراد الأفشين أن يسير ببَابَك إلى سامراء ، قال له : إنِّي أُريد أن أُسافر بك ، فانظر ماتشتهي من بلاد أذربيجـان . فقـال : أشتهي أن أنظر إلى مدينتي « البَـذّ » ، فوجَّـه الأفشين معـه قومـاً إلى البَـذِّ ، حتى دار بالمدينة وما حولها[4] .

وكان وصـول الأفشين ببَـابَـك إلى سـامراء في ٣ صفر سنـة ٢٢٣ هـ[5] ، وفي دار العامَّة ، أتاه أحمد بن أبي دُوَاد - قاضي القضـاة - متنكِّراً فنظر إلى بَابَك وكلَّمه ، ورجع إلى المعتصم فوصفه له ، فـأتـاه

---

(١) النُّجوم الزَّاهرة ٢٣٧/٢

(٢) الفرسخ الشَّرعي = ٥٥٤٤ م ، « كتاب الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان » ص ٨٩

(٣) البداية والنهاية ٢٨٤/١٠

(٤) الطبري ٥١/٩

(٥) في دائرة المعـارف الإسلاميَّـة ٢٤٦/٣ : دخل سـامراء في ٣ كانون الثـاني (ينـاير) ٨٣٨ م = ٢ صفر ٢٢٣ هـ .

المعتصم أيضاً متنكِّراً فرآه[1] ، ثمَّ أمر أن يهيِّئوا فيلاً ، ويخضِّبوا أطرافه ويلبسوه من الحرير والأقنعة الَّتي تليق به شيئاً كثيراً .

وأُدخل بَابَك على الفيل ليراه النَّاس كافة ، وليشهر أمره ويعرفوه ، قال محمد بن عبد الملك الزَّيات :

قَدْ خُضِّبَ الفِيلُ كَعادَتِهِ يَحْمِلُ شَيْطانَ خُراسانِ
وَالفيلُ لا تُخْضَبُ أعْضاؤُهُ إلاَّ لِذي شأنٍ مِنَ الشَّانِ[2]

فأمر المعتصم أن تقطع يداه ورجلاه ، فلما قطعت يده مسح بالدَّم على وجهه حتَّى لا يرى أحد أن وجهه أصفر خيفة من القتل[3] . ثم ذبح وشقّ بطنه ، ووجّه برأسه إلى خراسان ليطمئن الناس ويأمنوا ، وصلب بدنه بسامراء ، وسيّر أخاه إلى بغداد ، وأمر بضرب عنقه ، وأن يفعل به مثل مافعل بأخيه .

وقدَّم المعتصم صلة كبيرة إكراماً للأفشين .

ودليل أهمية هذه الحركة ، وما لاقاه الناس منها :

١ ـ غلب بَابَكُ من القوَّاد : يحي بن معاذ ، وعيسى بن محمد بن

---

(١) البداية والنهاية ٢٨٤/١٠ ، الكامل في التاريخ ٢٤٦/٥ ، الطبري ٥٤/٩

(٢) البداية والنهاية ٢٨٤/١٠ ، ابن خلدون ٢٦٢/٣

(٣) النجوم الزاهرة ٢٣٨/٢

أبي خالـد ، وأحمـد بن الجنيـد وأسره ، وزريق بن علي بن صـدقـة ، ومحمَّد بن حُميد الطُّوسي ، وإبراهيم بن اللَّيث .

٢ ـ إنفاق الدولة الضخم على هـذه الحرب ؛ فكان المعتصم ـ سوى الأرزاق والعتـاد .. ـ يقـدِّم للأفشين كلّ يوم يركب فيـه عشرة آلاف درهم ، وفي كلِّ يوم لا يركب فيه خمسة آلاف .

٣ ـ وكان جميـعُ من قتـل بَـابَـكُ في عشرين سنـة ٢٥٠,٠٠٠ إنسانٍ[١] .

☆ ☆ ☆

يقـول هيـوار Cl. Huart كاتب مـادّة بَـابَـك في دائرة المعـارف الإسلامية (٢٤٦/٣) : « ولم يعبأ المعتصم بكتاب الأمان الَّـذي كان قـد بعث به إلى بَابَك » ، وهذا يـدلّ على حقـدِ كثيرٍ من المستشرقين عنـد كتابة تاريخنا العربي الإسلامي لأنَّ هيوار لا ينقصـه العلم بـأن بَـابَـك رفض الأمان ، وامتنع عن قبوله ، وقتل بعض من حمل الأمان إليـه ، وبذلك يكون صواب عبارة هيوار : ولم يعبـأ بَـابَـك بكتـاب الأمـان الَّذي كان قد بعث به إليه المعتصم !! فلقي جزاء عمله .

☆ ☆ ☆

---

(١) في الطبري ، والكامل في التاريخ : مِئَتا ألف وخمسة وخمسون ألفاً وخَمْسُ مئة إنسان ، وفي ابن خلدون ٢٦٢/٣ : ١٥٥ ألفاً فقط .

عَمُّورِيَّة

أسبابها

☆ بابَك الْخُرَّمي لتيوفيل ملك الرُّوم : إن المعتصم قد وجَّه عساكره ومقاتلته إليّ ، حتَّى وجَّه خيَّاطه وطبَّاخه ، ولم يبق على بابه أحد ، فإن أردت الخروج إليه ، فليس في وجهك أحد يمنعك .

كتب بَابَك إلى حليفه تيوڤيل بن ميخائيل بن جُورجس ، ملك الرُّوم البيزنطيين ، عندما ضيَّق عليه الأفشين ، قائلاً :

« إن ملك العرب ـ المعتصم ـ قد جهَّز إليَّ جمهور جيشه ، ولم يبقَ في أطراف بلاده من يحفظها ، فإن كنت تريد الغنيمة فانهض سريعاً إلى ما حولك من بلاده فخذها ، فإنَّك لا تجد أحداً يمانعك عنها »[1] ، إن عساكر العرب تحاصرني « فإن أردتَ الخروج إليه ، فاعلم أنَّه ليس في وجهك أحد يمنعك »[2] . وطَمِعَ بَابَك من مكاتبته

---

(١) البداية والنهاية ٢٨٥/١٠

(٢) الطبري ٥٦/٩ ، ابن خلدون ٢٦٢/٣ ، الكامل في التَّاريخ ٢٤٧/٥ ، مروج الذهب ٥٩/٤

هـذه ، تحرُّك تيوفيل ، ولـو بمنـاوشـات واشتبـاكات حـدوديَّـة ؛ لأن تيوفيل وإمكاناته دون التفكير بهجوم في عمق الخلافة العبـاسيَّـة ، كل ذلـك .. للتخفيف عن بَـابَـك بعض مـا هو فيـه ، فلعلّ المعتصم يـأمر بصرف بعض مَنْ يحـاصر بَـابَـك من جنـد الخـلافـة ، ويـوجِّههـا إلى تيوفيل ، وأكَّد بَابَك أن المعتصم قـد وجَّـه عسـاكره ومقـاتلتـه إليـه ، حتَّى وجَّه خيَّاطه[1] وطبَّاخه[2] ، ولم يبقَ على بابه أحد ، فـإن أردت الخروج إليه ، فليس في وجهك أحـد يمنعـك ، وظنَّ بَـابَـك أن ملـك الرُّوم إن تحرَّك فإنّه يكشف عنه بعض ما هو فيه ، بإنفاذ العساكر إلى مقاتلة الرُّوم ، فخرج تيوفيل في مئة ألف من جنده .

وكان خروج تيوفيل في سنة ٢٢٣ هـ ، ومع أن بدء حرب بَـابَـك على يد الأفشين بدأت سنة ٢٢١ هـ ، فـإنَّ كُتُبَ التـاريخ لم تَـذكُرْ لِمَ تأخَّرَ تيوفيل بتلبية طلب بَابَك قرابـة عـامين ! ولعلّ السَّبب اعتقـاد تيوفيل أن حركة بَابَك بـدأت منـذ عشرين سنـة ، واستطـاع بَـابَـك خـلال هـذه المـدة قهر الجيـوش التي وجهتهـا بغـداد وسـامراء إليـــه ، ومـا هـذه الحرب اليـوم إلاَّ حلقـة من حلقـات هـذا النزاع الَّـذي كاد ينتهي لصالح بَابَك ، لذلـك جـاء تحرُّك تيوفيل متـأخراً جـداً ، بعـد دخول البَذِّ وتدميرها ، وبعد يأسه من وصول بَابَك إليـه بعـد فراره ،

---

(١) يعني جعفر بن دينار الخيَّاط .

(٢) يعني ايتاخ طبَّاخ المعتصم .

فاستغل تيوفيل احتفالات الخلافة بالنصر والقضاء كلياً على الْخُرَّميَّة ، فقام بهجومه الخاطف .

انقضَّ تيوفيل على مدينة زِبَطْرَة[1] ، وأعمل بها السَّيف ، وقتل الصَّغير والكبير بلا إنسانية ولا رحمة ، وسبى النساء بعد ذبح أطفالهن ، ثمَّ أغار على مَلَطْيَة[2] ، فأصابها على يد تيوفيل وجنده ماأصاب زِبَطْرَة ، فضجّ المسلمون في مناطق الثُّغور كلِّها ، واستغاثوا في المساجد والطرقات ، ودخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم ، وأنشده قصيدة يذكر فيها منازل بزبطرة وملطية والثغور ، ويحضُّه على الانتقام ، ويحثُّه على الجهاد ، منها :

يا غارةَ اللهِ[3] قد عاينتِ فانتهكي هتك النِّساءِ وما منهن يرتكب
هَبِ الرِّجال على إجرامها قُتِلَت ما بالُ أطفالِها بالذَّبحِ تُنْتَهَبُ

وفي ابن خلدون ٢٦٢/٣ : « وبلغ الخبر إلى المعتصم فاستعظمه ، وبلغه أن هاشميَّة صاحت وهي في أيدي الرُّوم : وامعتصماه ، فأجاب

---

(١) زِبَطْرَةُ : مدينة بين ملطية وسُمَيْساط والحدث في طرف بلد الروم « أي منطقة الثغور الشاميَّة » ، معجم البلدان ١٣٠/٣

(٢) مَلَطْيَةُ : بلدة في الثغور الشمالية في آسية الصغرى « بلدة من بلاد الرُّوم مشهورة مذكورة تتاخم الشّام وهي للمسلمين » معجم البلدان ١٩٢/٥

(٣) في الرَّوض المعطار (ص ٢٨٥) :

يا غيرة الله قد عاينتِ فانتقمي تلك النِّساء وما منهن يرتكب

وفي مروج الذَّهب ٦٠/٤ : وإبراهيم بن المهدي أوَّل من قال في شعره : يا غارة الله .

وهو على سريره : لبَّيك لبَّيك ، ونادى بالنَّفير العام ، ونهض من ساعته » .

وفي الكامل في التَّاريخ ٢٤٧/٥ : « وبلغه أن امرأة هاشميَّة صاحت وهي أسيرة في أيدي الرُّوم : وامعتصماه ، فأجابها وهو جالس على سريره : لبَّيك لبَّيك ، ونهض من ساعته ، وصاح في قصره : النَّفير النَّفير »[1] .

---

(١) في الدّراسات الحديثة أبحاث علميَّة عن عالم الرُّوح ، ففي كتاب « العالم غير المنظور » للدكتور علي عبد الجليل راضي ، ط ٣ ، مكتبة النَّهضة المصريَّة ، وبعد شرح « الجلاء البصري » ص ١٥٧ ، وضَّح « الجلاء السَّمعي » وهو أن يسمع إنسانٌ إنساناً آخر عن بعد .
وفي دراسات علم الرُّوح الحديثة أُقرَّ « الجلاء السَّمعي » في أمريكة وروسية وإنكلترة وفرنسة .. والَّذي هو التخاطب عن بعد ، وسُمِّيت هذه الظاهرة « التلباثيا Télépathié » ، والَّتي عُرِّفت بأنَّها ظاهرة نفسية لم يعترف بحقيقتها جميع العلماء ، تقوم على الاتصال بين النُّفوس وإن كانت بعيدة ، وذلك بوسائل غير الوسائل الحسِّيَّة المعلومة .
« والتلستزيا Télésthésic » ظاهرة نفسيَّة شبيهة بظاهرة التلباثيا ، إلاَّ أنَّها لاتقوم على الاتصال بين نفس ونفس ، بل تقوم على الاتصال بين النَّفس المدركة وأحد الأحداث المادية على بعد المسافة بينها وبينه .
وفي أُسد الغابة ٣٠٦/٢ أن عمر بن الخطاب كان يخطب على منبر رسول الله ﷺ بالمدينة المنوَّرة ، فعرض له في خطبته أن قال : يا ساريةُ ، الجبلَ الجبلَ ، فلما فرغ من صلاته قال له علي : ماشيء سنح لك في خطبتك ؟ قال : وقع في خَلَدي أن المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم ، وأنَّهم يمرُّون بجبل ، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوا ، وقد ظفروا ، وإن جاوزوا هلكوا . فجاء البشير من شمالي شرق العراق بالفتح ، فذكر أن سارية بن زُنَيْم سمع في ذلك اليوم ، في تلك السَّاعة ، حين جاوز الجبل ، صوتاً يشبه صوت عمر : يا ساريةُ ، الجبلَ الجبلَ ، قال : فعدلنا إليه ، ففتح الله علينا .

والطبري والبداية والنهاية يـذكران : « وسبى من المسلمـات أكثر من ألف امرأة ، ومثَّل بمن صـار في يـده من المسلمين ، وسمل أعينهم ، وقطع آذانهم وآنافهم[1] » . فهما بذلك يذكران سَبْيَ النساء المسلمات .

أمَّا في الرَّوض المعطـار ص ٢٨٥ فقـد ورد بروايـة تمريض بـدأت بكلمة « ويقال » : إن المعتصم بلغـه أن روميـاً لطم أسيرة في زبطرة ، فصاحت : وامعتصماه ، فـأحفظـه ذلـك وأغضبـه ، فخرج من فوره ، نافراً عليه درَّاعة[2] من الصوف بيضاء قـد تعمّم بعمّـة الغزاة . ثم أورد الرَّوض المعطار :

لبَّيتَ صوتاً زبطريـاً هرقت لـه كأس الكرى ورضاب الخرَّد العُرُبِ

يعني صوت الَّتي صاحت : وامعتصماه .

وفي مـآثر الإنـافـة ٢٢٦/٢ ، أورد القلقشنــدي الروايــة بتمريض أيضـاً : « يُحْكى » أنَّ صـاحب عمورية من ملـوك الرُّوم كانت عنـده شريفة من ولد فاطمة رضي الله عنها ، مـأسورة في خلافـة المعتصم بن

= فمن الممكن أن يكون المعتصم قد سمع صيحة الهاشميَّة في حينها بجلاء سمعي ، فأجابها وهو جالس على سريره : لبَّيك لبَّيك .

(١) الأنف : المَنْخَرَ معروف ، والجمع آنفٌ وآنافٌ وأُنوف (اللّسان : أنف) .

(٢) الـدُّرّاعـة والمِدْرع : ضرب من الثّياب ، والمِدْرعة : ضرب آخر ولا تكـون إلاّ من الصُّوف خاصة ، (اللّسان : درع) .

الرشيد ، فعذَّبها ، فصاحت الشَّريفة : وامعتصماه ، فقال لها الملك : لا يأتي لخلاصك إلاَّ على أبلق[1] ، فبلغ ذلك المعتصم فنادى في عسكره بركوب الخيل البُلْق ، وخرج وفي مقدِّمة عسكره أربعة آلاف أبْلَق ، وأتى عمُّورية وفتحها ، وخلَّص الشَّريفة ، وقال : « اشهدي لي عند جَدِّك أني أتيت لخلاصك ، وفي مقدِّمة عسكري أربعة آلاف أبلق » .

وفي شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب (٦٣/٢) : « ومن عجيب مااتَّفق له ـ للمعتصم ـ أنَّه كان قاعداً في مجلس أُنسه والكأس في يده ، فبلغه أن امرأة شريفة في الأسر عند علج من علوج الرُّوم في عمُّورية ، وأنَّه لطمها على وجهها يوماً ، فصاحت : وامعتصماه ، فقال لها العلج : « ما يجيء إليكِ إلاَّ على أبْلَق » ، فختم المعتصم الكأس ، وناوله للسَّاقي ، وقال : لا شربته إلاَّ بعد فكِّ الشَّريفة من الأسر وقتل العلج ! ثم نادى في العساكر المحمديَّة بالرَّحيل إلى غزو عمُّورية ، وأمر العسكر أن لا يخرج أحد منهم إلا على أبلق ، فخرجوا معه في سبعين ألف أبلق ، فلما فتح الله تعالى عليه بفتح عمُّورية دخلها ، وهو يقول : لبيك ، لبيك ، وطلب العلج صاحب الأسيرة الشَّريفة ، وضرب عنقه ، وفكَّ قيود الشَّريفة ، وقال للسَّاقي : ائتني بكأسي المختوم ، ففكّ ختمه وشربه ، وقال : الآن طاب شرب

---

(١) البَلَق : سواد وبياض (اللِّسان : بلق) .

الشَّراب » ، وختم المؤلف هذه الحادثة بقوله : « سامحه الله تعالى وجزاه خيراً »[1] .

وفي وفيات الأعيان (٢٣/٢) : « كان المنجِّمون حكموا لما خرج المعتصم إلى الرُّوم بأنَّه لا يرجع » .

وفي تاريخ الخلفاء (ص ٣٣٦) : « حكم المنجِّمون أن ذلكَ طالع نحس ، وأنَّه يكسر » .

ومن مجموع هذه الرِّوايات نستنتج الأُمور التَّالية :

١ ـ قرَّر المنجمون المتنبئون أن الوقت غير ملائم ـ حسبما ترشد إليه مواقع الكواكب ـ للقيام بحملة عسكرية ضدّ الرُّوم .

٢ ـ وأن هناك مئات الأسيرات العربيات ، أسرهن الرُّوم بحملة خاطفة على الثغور الإسلاميَّة ، صاحت إحداهن مستنجدة مستصرخة : وامعتصماه .

٣ ـ يثبت ماسبق من استنتاج قصيدة أبي تمام « السَّيفُ أصدقُ

---

(١) ختم المؤلف (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي) بهذه العبارة : « سامحه الله تعالى » لشربه الشَّراب ، « وجزاه خيراً » لإنجاده المسلمين في الثغور ، ولا يشترط في الشراب أن يكون مسكراً ، فقد أحلَّ أهل العراق نبيذ التَّمر ـ وهو لا يسكر ـ وفتاويهم فيه معروفة « هارون الرشيد ص ١٣٦ وما بعدها » .

أنباءً مِنَ الكُتُبِ » ، والَّتي سنوردها كاملة في الخاتمة ، والَّتي أُلقيت في قصر الخليفة ، بحضور المعتصم وحاشيته والصَّفوة من رعيَّته ، حيث ذكر فيها أبو تمام وأورد نبوءة المنجِّمين في أكثر من عشرة أبيات ، وذكر أيضاً في أحد الأبيات : « لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيّاً .. » ، وقال الخطيب التبريزي شارح ديوان أبي تمام[1] : « زِبَطْرِيٌّ : منسوب إلى زِبَطْرَةَ ، وهي بلد فتحه الرُّوم ، فبلغ المعتصم فيما قيل أن امرأةً قالت في ذلك اليوم وهي مسبيَّة : وامعتصماه ! فنُقِلَ إليه ذلك الحديثُ وفي يده قَدَحٌ يريد أن يشرب مافيه ، فوضعه وأمر بأن يحفظ ، فلما رجع من فتح عمُّورية شرب »[2] .

☆ ☆ ☆

انتهى الخبر بما جرى في الثغور إلى المعتصم ، فصاح في قصره : النَّفير ، النَّفير ، وأحضر القاضي عبد الرحمن بن إسحاق ، وشعيب[3] بن سهل ، ومعهما ثلاث مئة وثمانية وعشرون[4] رجلاً من أهل العدالة ، فأشهدهم على ماوقف من ضياع ، فجعل ثُلُثاً لولده ،

---

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزَّام ، دار المعارف ١٩٦٤ ، الجزء الأول ، صفحة ٤٠ وما بعدها .

(٢) ديوان أبي تمام (المرجع السَّابق) ٦١/١

(٣) الكامل في التَّاريخ ٢٤٧/٥ : شعبة بن سهل .

(٤) ابن خلدون ٢٦٢/٣ : ومعهما ٣٣٠ من العدول .

وثُلُثــاً لله ، وثُلُثــاً لمـواليــه ، وذلــك يـوم الاثنين ٢ جمــادى الأُولى ٢٢٣ هـ ، ووجَّه عُجَيفَ بن عنبسة ، وعَمْراً بن أَربخا الفرغاني ، ومحمد كُوتاه ، وجماعة من القوَّاد بنجدة سريعة إلى زبطرة ، إعانـة لأهلهـا ، فوجدوا ملك الرُّوم قد انصرف إلى بيزنطـة ، بعـدمـا فعل مـافعل من تخريب وتحريق وقتل وسبي ، فلبثوا في الثغـور حتَّى عـاد النـاس إلى قراهم واطمأنوا .

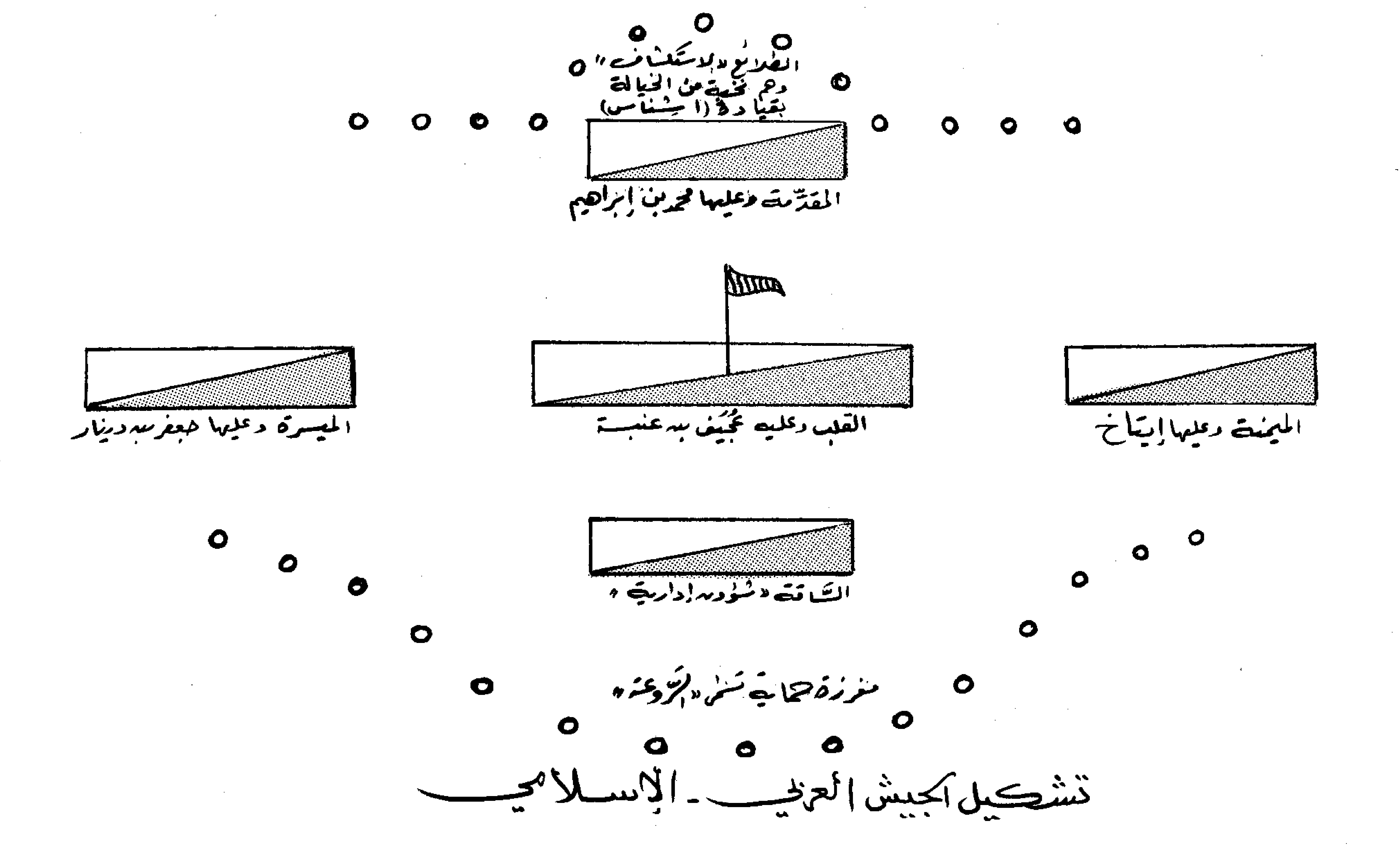
وعندما سار المعتصم باتجاه الثغور لتأديب تيوفيل تساءل قـائلاً : أيُّ بلاد الرُّوم أمنع وأحصن ؟ فقيل : عمُّوريَة[1] ، لم يعرض لهـا أحـد من المسلمين منذ كان الإسلام ، وهي عين النَّصرانيَّة وبُنْكهـا[2] ، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية[3] ، فسار باتجاههـا ، بجهـاز عظيم من السِّلاح والعدد وآلات الحصار والنِّفط ، وجعل على مقدمته اشِنـاس ، ويتلــوه محمــد بن إبراهيم بن مصعب ، وعلى ميمنتــه إيتـــاخ ، وعلى ميسرتـــه جعفر بن دينـــار بن عبـــد الله الخيـــاط ، وعلى القلب عُجَيف بن عنبسة .

---

(١) عَمُّورِيَّة : مشدَّدة الميم والياء أيضاً ، قـال الصـاغـاني : كـذا ذكروا ، قـال : والقيـاسُ تخفيف الياء ، كما جاءت في إرمينية ، (تاج العروس : عمر) .

(٢) البُنك : أصل الشَّيء وخالصه ، (اللِّسان : بَنَكَ) .

(٣) الطَّبري : ٥٧/٩ ، ابن خلـدون ٢٦٢/٣ ، الكامـل في التـاريـخ ٢٤٧/٥ ، البـدايـة والنهـايـة ٢٨٦/١٠ ، تاريخ بغداد ٣٤٤/٣



الطلائع «الاستكشاف»
وهم نخبة من الخيالة
بقيادة (اشناس)
المقدمة وعليها محمد بن إبراهيم
الميمنة وعليها إيتاخ
القلب وعليه عجيف بن عنبسة
الميسرة وعليها جعفر بن دينار
الساقة «شؤون إدارية»
مفرزة حماية تسمى «الروعة»
تشكيل الجيش العربي - الإسلامي

« ومما لا شك فيه أنَّ منظر الجيش العربي ، وهو يشقُّ طريقه في صفوف لا نهاية لها في بلاد الأعداء ، كان بالغاً حدَّ العظمة والبهاء ، فكانت الخيَّالة تسير في المقدِّمة ، وعلى جناحيها النبَّالة ، ثمَّ يأتي بعدهم الرَّجَّالة الَّذين كانوا يسيرون في صفوف كثيفة بانتظام عجيب ، ويليهم صفوف الجمال المحمَّلة بالعُدَدِ والخيم والعتاد ، ثمَّ يجيء بعدهم المستوصفات الصِّحيَّة والنَّقَّالات لحمل المرضى والجرحى ، ثمَّ آلات الحرب كالمنجنيقات والعرَّادات ، محمَّلة على ظهور الجمال والخيول والبغال ، وهي تسير في المؤخرة »[1] .

ولما دخل الجيش العربي ـ الإسلامي ، بقيادة المعتصم ، بلاد الرُّوم[2] ، أقام على نهر اللاَّمِس[3] ، بعد أن وصلت الطليعة إلى الموقع المقصود ، وحُفرت الخنادق ، فقد كان النِّظام يقضي بألاَّ يعسكر الجنود قبل أخذ الحيطة من الهجوم المفاجئ ، فإذا ما وصل الجيش الرئيسي نُصبت الخيام في نظام بديعٍ رائع ، وخططت الشوارع والميادين ، وأقيمت الأسواق ، كما لو كان المعسكر مدينة عامرة ،

---

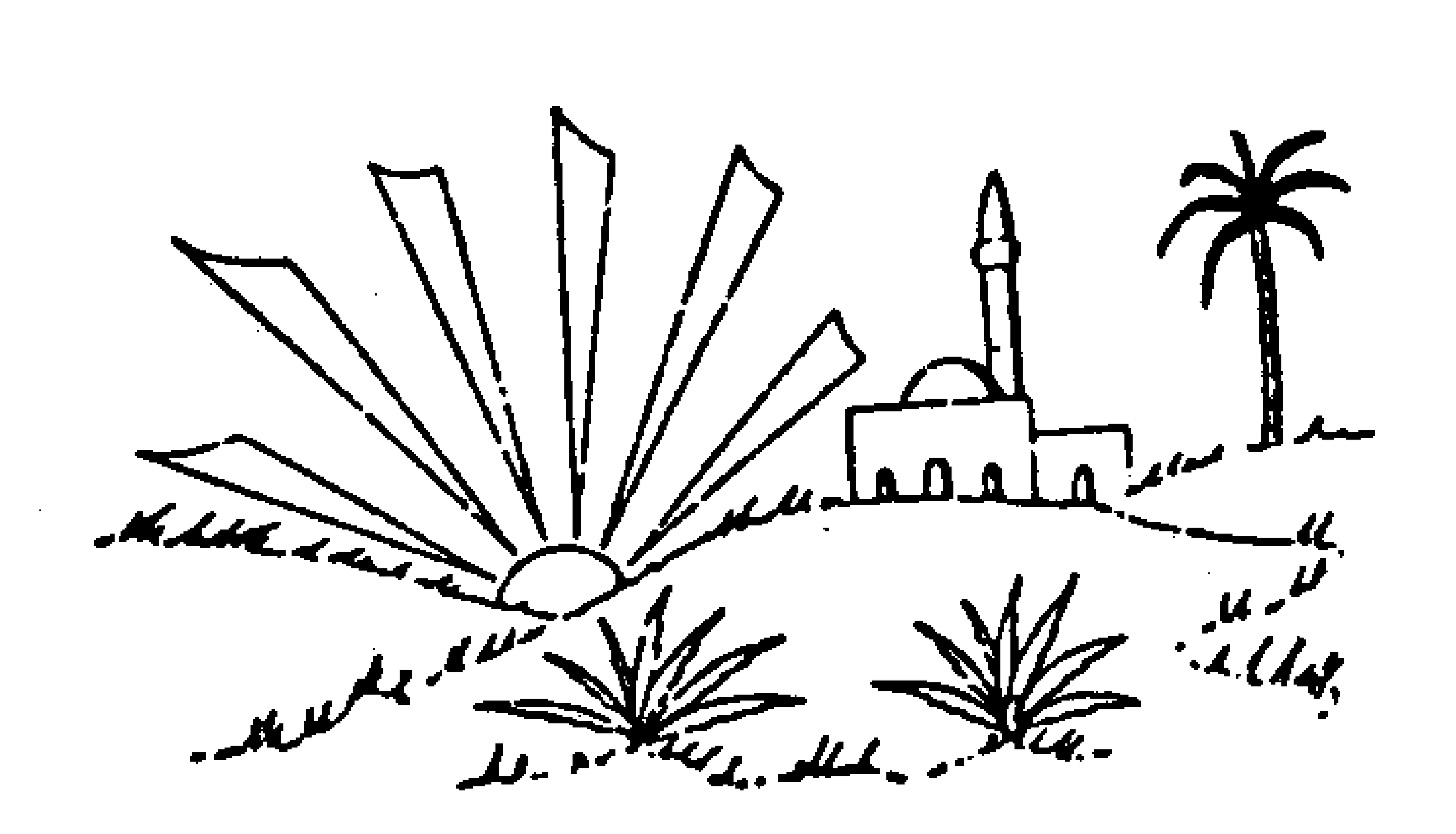
(١) الجيش العربي في عصر الفتوحات ، ص ٢١٥ ، د . إحسان الهندي عن (تاريخ العرب والتمدن الإسلامي) لسيد أمير علي .

(٢) كان الجيش العربي يجتاز بصورة عادية مرحلة كاملة يومياً .

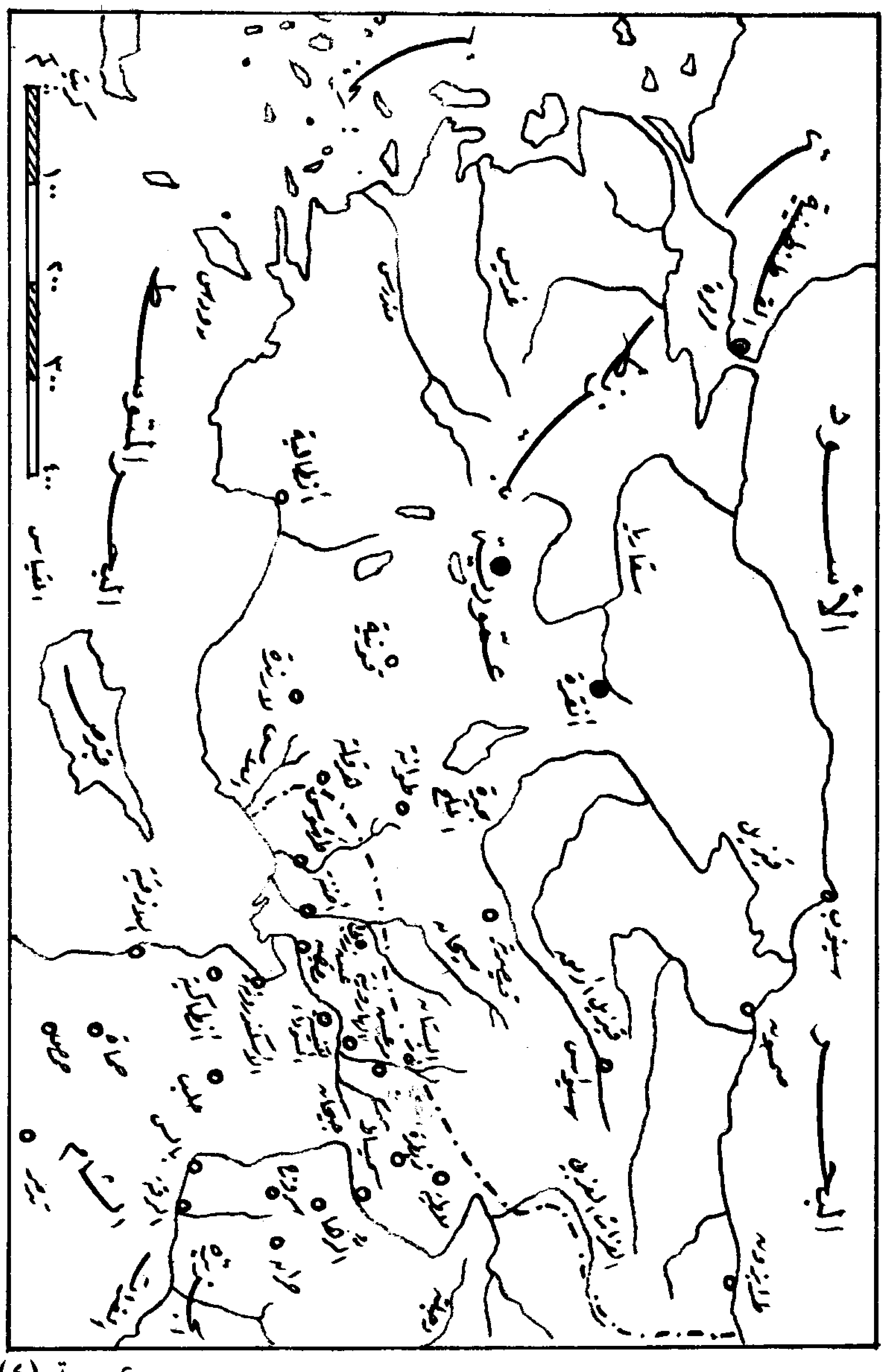
(٣) كان نهر اللاَّمِس الحدّ الفاصل بين الخلافة العباسيَّة والدَّولة البيزنطيَّة في آسية الصغرى (جنوباً) ، على ضفتيه كانت تتمُّ مبادلة الأسرى .

وكانت توزَّع الأرزاق ، فتوقد المطابخ ، وتنصب عليها القدور ، مع بثِّ مفارز الرَّصد والدَّوريات المتحرِّكة ، ويقسمون الجند إلى عدَّة نوبات ، بحيث يظلّ قسم منهم جاهزاً دوماً على ظهور الخيل ، لمشاغلة العدو ريثما يستعد الباقون ، ويضاف إلى كلِّ ذلك أفراد الحرس الدَّاخلي ، الَّذين كانوا يُفاجَؤون في محارسهم ليلاً ، للتأكُّد من يقظتهم ، وكان هؤلاء يستلمون الحراسة بالمناوبة ، وكانت نوبة حرس أوَّل اللَّيل أطول من نوبة آخره عادة(١) .

ومن ضفاف نهر اللاَّمِس ، سيَّر المعتصمُ الأفشينَ شمالاً ، وهدفه أنقرة ، وسيَّر خلفه أشناس ، ثم سار خلفهما ، فكان معهما قُبالة أنقرة في ٢٥ شعبان ٢٢٣ هـ ، ففتحها بسهولة ، اتجه بعدها إلى عمُّورية .



(١) « الجيش العربي في عصر الفتوحات » د . إحسان الهندي ، ص ٢١٨ ، وعرف الجيش العربي المسلم « كلمة اللَّيل » ـ كلمة السّر ـ للتَّعارف ليلاً .



عمورية (٤)

فَتْحُ عَمُّورِيَّة

☆ لقد سقطت عموريَّة بعد أهمّ معركة عربيّة استُخدمت فيها أدوات الحصار الضّخمة الكبيرة ، كالدبابات والمجانيق والسّلالم والأبراج على اختلاف أشكالها وأنواعها .

اجتمعت كلّ العساكر بقيادة المعتصم عند عمورية ، فركب ودار حولها دورة كاملة ، وقسَّمها بين القُوَّاد ، جاعلاً لكلٍّ واحد منهم أبراجاً من سورها ، وذلك على قدر كثرة أصحابه وقلَّتهم ، وصار لكل قائد منهم ما بين البُرجَيْن إلى عشرين برجاً[1]

أمَّا أهل عمُّوريَّة فقد تحصَّنوا داخل أسوار مدينتهم ، متّخذينَ مااستطاعوا من الحيطة والاحتراز .

وعلم المعتصم من عربي متنصِّر ، تزوَّج في عمُّوريَّة وأقام بها ، أنَّ موضعاً من المدينة جاءه سيل شديد ، فانهار السُّور في ذلك الموضع ،

---

(١) الطبري ٦٣/٩ ، الكامل في التاريخ ٢٤٩/٥ ، ابن خلدون ٢٦٣/٣

فكتب ملك الرُّوم تيوفيل إلى ياطس[1] ، عامله على عمُّوريَّة أن يبني ذلك الموضع ويعيد تشييده ، تحسُّباً لنتائج فعلته في زِبَطْرَة والثُّغور الإسلاميَّة ، فتوانى ياطس في بنائه وترميمه ، وعندما علم أن تيوفيل خرج من القسطنطينيَّة إلى بعض المواقع متفقِّداً ، تخوَّف ياطس أن يمرَّ تيوفيل على عمُّوريَّة فيرى جانباً من سورها لم يرمَّم ، وهو الَّذي أمر بإعادة تشييده ، فوجَّه ياطس الصُّنَّاع والبنَّائين ، فبنوا وجه السُّور بالحجارة حجراً حجراً ، وتركوا وراءه من جانب المدينة حشواً ، ثمَّ عقدوا فوقه الشُّرَف ، فبدا كما كان .

ولما علم المعتصم بذلك ، أمر بضرب خيمته تجاه هذا الموضع ، ونصب المجانيق عليه .

بدأت المجانيق الضخمة ـ مع آلات الحصار الأُخرى ـ تعمل عملها ، فانفرج السُّور من ذلك الموضع ، فلما رأى أهل عمُّوريَّة انفراج السُّور ، دعَّموه بالأخشاب الضَّخمة ، كلُّ واحدة إلى جانب الأُخرى ، لا فرجة بينها ، فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسَّر ،

---

(١) هو في الطبري ياطس فثبتنا اسمه كما ورد في الطبري ، وهو في الكامل في التَّاريخ ٢٤٩/٥ : ناطس ، وعند اليعقوبي ٤٧٦/٢ : ياطس (كالطبري) ، وفي البداية والنهاية ٢٨٨/١٠ : مناطس ، وفي الرَّوض المعطار ص ٢٨٥ : باطس (باطيش) . وفي ابن خلدون ٣٦٣/٣ : باطيس .

فيهرع المحاصَرُون لتدعيم السُّور بأخشاب ضخمة جديدة ، ليحموا السُّور من الانهيار .

وعندما توالت قذائف المجانيق على هذا الموضع الواهن ، انصدع السُّور ، فكتب ياطس إلى تيوفيل كتاباً يعلمه فيه بأمر السور ، وحرج الموقف ، وقوة الحصار ، ووجَّه الكتاب مع رجل يتقن العربية ، ومعه غلام رومي ، واختيار ياطس لرجل يتقن العربية ، كي لايكشف أمره عند اجتياز صفوف الحصار ، فإن تحدَّث معه عربي مسلم أو سأله ، يجيبه بالعربية كي لا يُشَكَّ في أمره .

وأخرج ياطس الرَّجُلَيْن من صدع[1] ، لعله مكان مسيل ماء ، فعبرا الخندق الَّذي يلي السُّور ، وخرجا إلى ناحية عمرو الفرغاني ، فلما خرجا من الخندق ، أنكرهما الجند ، فسألوهما : من أين أنتما ؟ فأجابا : نحن من أصحابكم ، نحن منكم جنديان في جيش أمير المؤمنين المعتصم ، فقالوا لهما : مِنْ أصحاب مَنْ أنتما ؟ فلم يعرفا أحداً من قُوَّاد أهل العسكر يسميانه لهم ، فأنكروهما ، وجاؤوا بهما إلى المعتصم ، فاستجوبهما ، وفتَّشهما ، فوجد معهما كتاباً من ياطس إلى تيوفيل ،

---

(١) في الطبري ٦٤/٩ : « وأخرجها من الفَصيل فعبرا الخندق » ، وفي اللسان : المفاصل : مفرق مابين الجبل والسَّهل ، كل موضع مابين جبلين يجري فيه الماء فهو مَفْصِل ، صدوع في الجبال يسيل منه الماء .

يعلمه فيه أنَّ جند المسلمين أحاطوا بعمُّوريَّة في جمع كبير ، وقد ضاق به الموضع ، وأنه قد اعتزم على أن يركب ويحمل خاصَّة أصحابه على الدَّوابِّ التي في الحصن ، ويفتح الأبواب ليلاً على حين غرة ويخرج ومن معه ، فيحمل على المسلمين كائناً ماكان بعدها ، أُفلت فيه من أفلت ، وأصيب فيه مَنْ أُصيب ، حتَّى يتخلَّص من الحصار ، مهما كانت النتائج .

وفي صباح اليوم التَّالي أمر المعتصم بالرَّجلين الأسيرين ، فأداروهما حول عمُّوريَّة ليحدِّدا مقرَّ ياطس ومكان وجوده ، فقالا : ياطس يكون في هذا البرج[1] .

وأمر المعتصم بالاحتياط في الحراسة ليلاً ونهاراً ، وشدَّدها ، وأَمر أن تكون بين الجند تناوباً ، في كلِّ ليلة يحضرها الفرسان ، يبيتون على دوابِّهم بكامل أسلحتهم ، تحسُّباً من أن يُفتح باب من أبواب عمُّوريَّة ليلاً ، أو أن يتسلَّل من خلالها إنسان ، فلم يزل جند المعتصم يبيتون كذلك بالتناوب على ظهور الدَّوابِّ في السلاح ، ودوابِّهم بسروجها ، حتَّى انهدم السُّور مابين بُرْجَيْن ، من الموضع الذي وصف للمعتصم أنَّه لم يحكم عمله[2] .

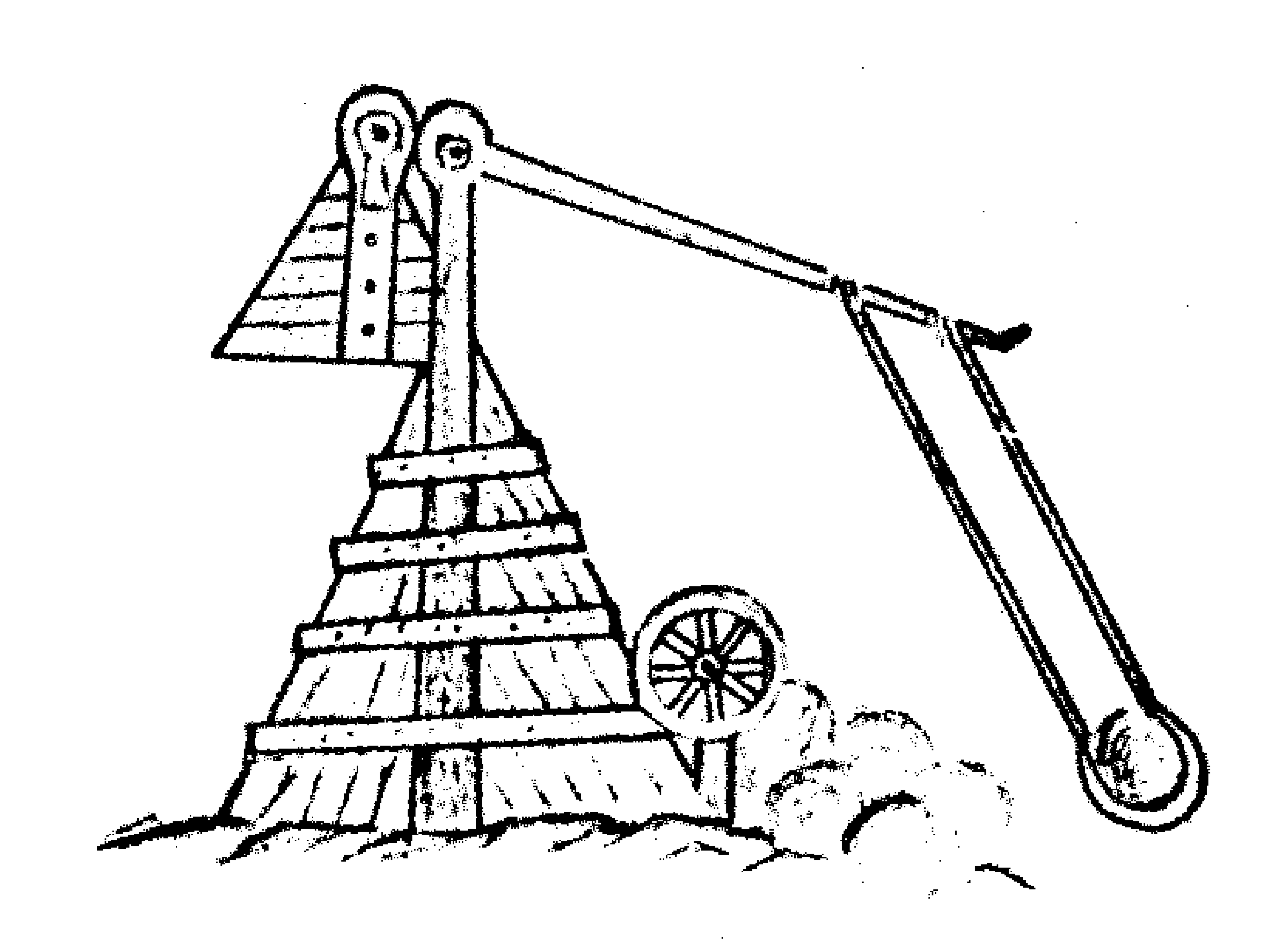
---

(١) أسلم الأسيران ، فأكرمهما المعتصم وخلع عليهما .

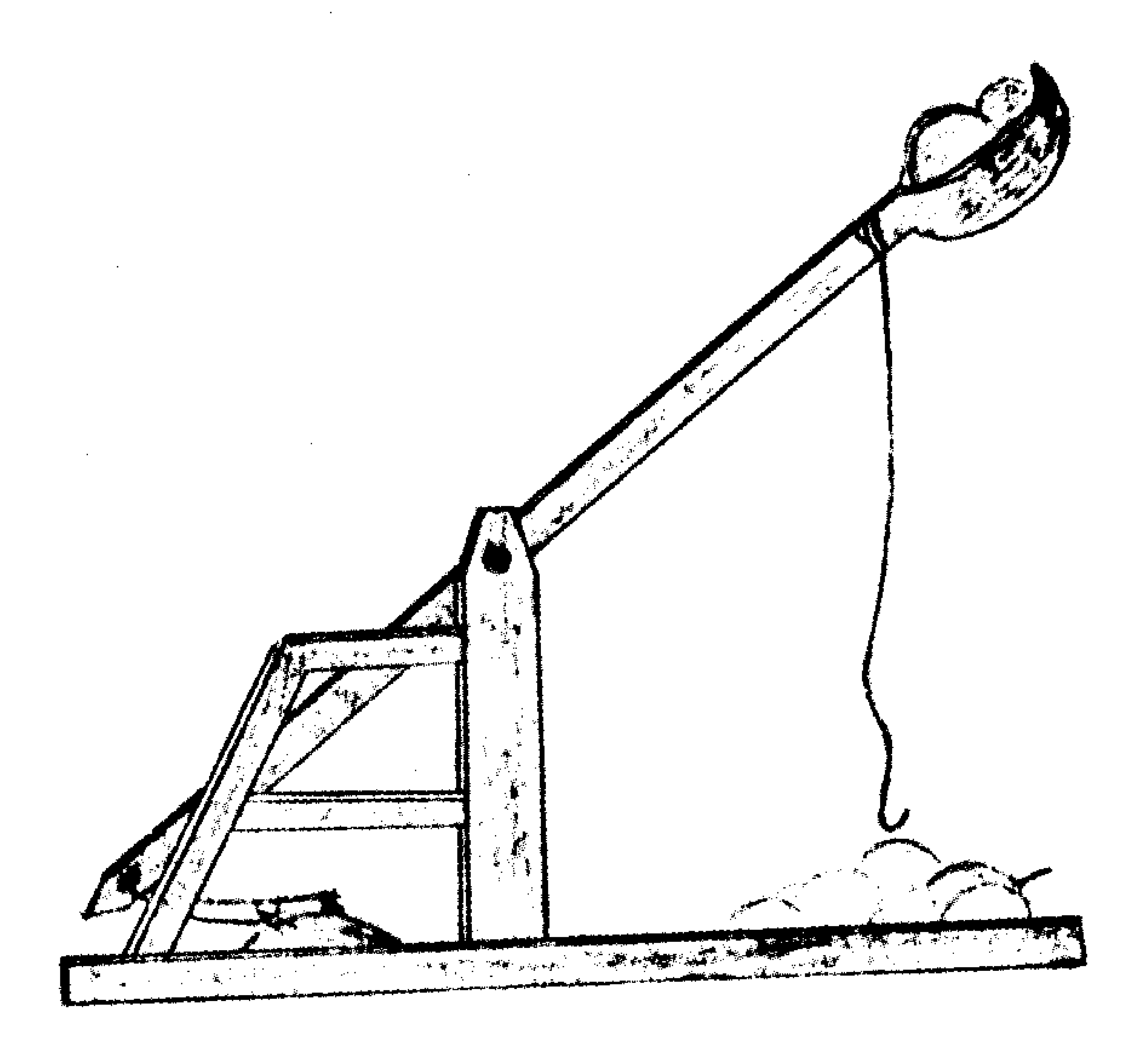
(٢) الطبري ٦٤/٩ ، الكامل في التَّاريخ ٢٤٩/٥

ودوَّى في فضاء عمُّوريَّة صوت اهتزت له جنباتها ، إثر تهدم جانب السُّور ، فطاف رجال بالجند المسلمين يبشرونهم أنَّ الصَّوت الَّذي سُمِعَ ، صوت السُّور قد سقط ، فطيبوا نفساً بالنصر .

لقد فعلت المجانيق فعلتها في السُّور ، وتنبَّه المعتصم إلى سعة الخندق المحيط بعمُّوريَّة وطول سورها ، فأمر ببناء مجانيق ضخمة كبيرة ، يعمل على كلِّ منجنيق منها أربعة رجال ، وللوصول إلى السُّور كان لابدَّ من ردم أجزاء من الخندق ، فدفع لكلِّ جندي شاة ، لينتفع من لحمها ، وليحشو جلدها تراباً ، ثم جمع « سلاح المهندسين » الجلود المملوءة تراباً ، وطرحها في الخندق .



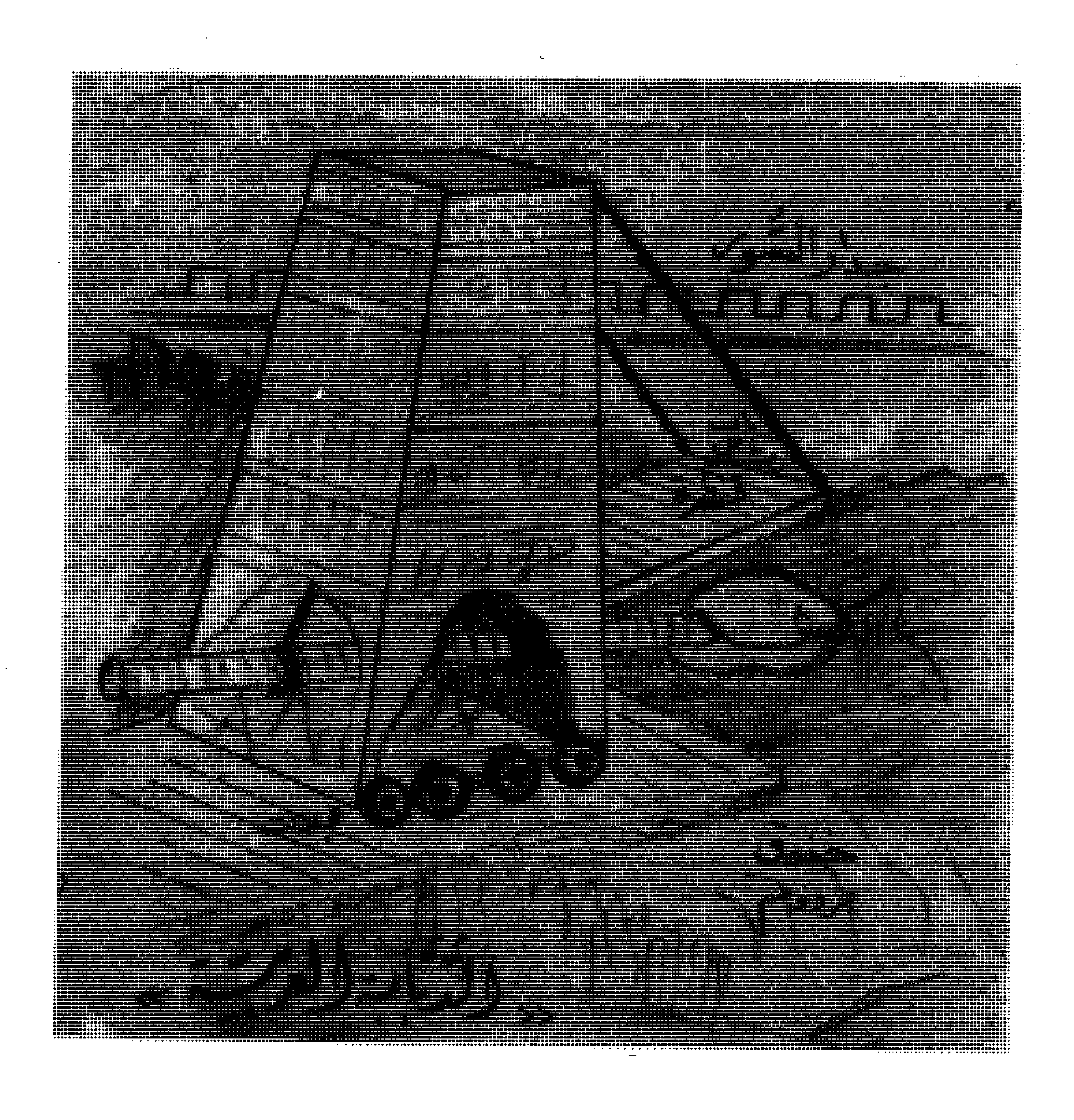
المجانيق المقلاعية ، ويمكنها الدوران ٣٦٠° (دورة كاملة)
قبل رمي المقذوف



رَمْيُ الأحجار « مقتبس عن جامع التواريخ لرشيد الدين »

كما أمر المعتصم مفارز الفَعَلَة بأن تردم جوانب من الخندق المحيط بسور عمُّوريَّة ، مستفيدة من جلود الغنم المملوءة تراباً ، كي يمكِّن الدبَّابات[1] من الوصول إلى السُّور ، وكلَّف مفارز من الرَّجالة بحماية العاملين وبردم الخندق ، وحماية العاملين في الدَّبَّابات أثناء قيامها بالواجبات المترتبة على كلٍّ منها .

(١) الدَّبَّابة : برج من الخشب مغلَّف باللبود والجلود المنقوعة في الخلِّ ، ومثبَّت على قاعدة خشبيَّة لها عجلات (انظر الصورة) ، عمل المعتصم منها دبابات كبيرة تسع كلُّ دبابة عشرة رجال .



وطرح العاملون من الفَعَلَـة الجلود ، فلم تقع مستويـة منضّـدة ، بسبب تكثيف الروم رميهم الحجـارة على العـاملين بردم الخنـدق ، فجاءت الجلود في الخندق غير مستويـة ، فطرحوا فوقهـا التراب حتّى أصبحت مستوية .

وفي صباح يوم جديـد من الحصـار بـدأ القتـال على الثُّلْمَـة الَّتي فُتحت في السُّـور ، ولكن المـوضـع كان ضيقـاً ، لم يمكنهم من اختراق

الثُّلْمَـةِ ، فـأمر المعتصم بـالمنجنيقـات الكبـار الّتي كانت متفرِّقـة حول السُّور ، فجمع بعضها إلى بعض ، وجعلها تجاه الثُّلمـة ، وأمر أن يُرمى ذلك الموضع لتتَّسع الثُّلمة ، ويسهل العبور ، وبقي الرَّمي ثلاثـة أيَّـام « فاتَّسع لهم الموضع المنثلم »[1] . واستخدمت أكباش الـدبـابـات أيضـاً (انظر كبش الدبابة في الشكل) لتوسيع الثُّلمـة ، ففي عموريَّـة جرت أهمّ معركة عربية استخدمت فيها الدبابـات استخـدامـاً جيـداً ، وعمل فيها « سلاح المهندسين » عملاً يشهد بتقدُّم مستوى هذا السلاح في بناء المجانيق والدبابات ، وفي تسهيل عملها قبل الحرب وأثناءها .

أمَّا حال الرُّوم داخل عمُّوريَّة ، فهي التـالي :

تقاسم القواد عنـدمـا نزل بهم عسكر المعتصم الأبراج ، لكل قـائـد وأصحابه عدة أبراج ، وكان الموكَّل بالموضع الّذي انثلم من السُّور رجلاً من قوّاد الرُّوم اسمه « وندوا »[2] ، فقاتل وأصحابه قتالاً شديداً باللَّيل والنَّهار ، والحرب عليه وعلى أصحابه ، ولم يمدّه ياطس ولا غيره بأحدٍ من الرُّوم ، فلمـا كان بـاللَّيل مضى « ونـدوا » إلى قومـه ، وقـال : إنَّ الحرب عليَّ وعلى أصحابي ، ولم يبقَ معي أحـد إلاَّ قـد جُرِح ، فصَيِّروا أصحـابكم على الثُّلمـة يرمون قليـلاً ، وإلاَّ افتضحتم وذهبت المـدينـة ،

(١) الطبري ٦٧/٩

(٢) في الطبري ٦٧/٩ والكامل في التّاريخ ٢٥٠/٥ اسمـه « ونـدوا » ، وورد عنـد ابن خلـدون ٢٦٤/٣ : « وبدوا » ، وتفسير « وندوا » في العربيّة : « ثَوْر » .

فـأبوا أن يمـدُّوه بـأحـد ، وقـالـوا : سَلِمَ السُّـور من نـاحيتنـا ، وليس نسألك أن تمدنا ، فشأنك وناحيتك ، فليس لك عندنا مـدد ، فـاعتزم « وندوا » وأصحابه على أن يخرجوا إلى المعتصم ، ويسألوه الأمـان على أهلهم ، ويسلِّموا إليه الحصن بما فيه من المتاع والسِّلاح .

فلما أصبح « وندوا » جعل رجاله على جـانبي الثُّلمـة ، وأمرهم ألاَّ يحـاربوا حتَّى يعود إليهم ، وخرج فقـال : إنِّي أُريـد أمير المـؤمنين ، فـأوصلـه بعض الجنـد العرب المسلمين إليـه ، في اللَّحظـة الَّتي حمل بهـا المسلمـون حتَّى وصلـوا إلى طرفي الثُّلمـة ، ثمَّ دخلـوا المـدينــة ، وسمـع « وندوا » صيحـات التكبير تتعـالى في سماء عمُّوريَّـة ، تبشِّر بـالفتح ، فالتفت وضرب بيده إلى لحيته .

المعتصم : مالَكَ ؟

وندوا : جئت أُريد أن أسمع كلامك ، وتسمع كلامي ، فغـدرتَ بي .

المعتصم : ـ مع أن الموقف لا غدر فيه مطلقاً ، فـالأبراج الأخرى ما زالت تقاتل ، وتقصف المسلمين بالحجارة والسهـام ـ كلُّ شيءٍ تريـد أن تقوله ، فهو لكَ عليَّ ، قل ما شئت ، فإني لست أخالفك .

وندوا : أيْش لا تخالفني ، وقد دخلوا المدينة ؟!

المعتصم : اضرب بيدك إلى ماشئت فهو لك ، وقل ماشئت فإنّي أُعطيكه[1] .

وأعطى المعتصمُ « وندوا » ماأراد ، من أمـان لـه ومن بجهتـه من الرِّجـال ، ثم ركب حتَّى جـاء فوقف حـذاء البرج الـذي يقـاتـل فيـه ياطس ، فصاح بعض الجند العرب : يا ياطس ، هذا أمير المؤمنين ، فصـاح الرُّوم من فوق البرج : ليس يـاطس هـاهنـا ، فغضب المعتصم لكذبهم ، وتوعَّـد ، فصـاحوا : هـذا يـاطس ، هـذا يـاطس ، فصعـد جندي[2] على أحد السَّلالم الَّتي هيِّئت أثناء الحصار ، وقـال ليـاطس : هذا أمير المؤمنين ، فانزل على حكمه ، فخرج ياطس من البرج متقلِّـداً سيفاً ، حتَّى وقف على البرج ، والمعتصم ينظر إليه ، فخلع سيفـه من عنقه ، ودفعـه إلى الجنـدي العربي الَّـذي صعـد إليـه ، ثمَّ نزل يـاطس ليقف بين يدي المعتصم ، معلناً سقوط عمُّوريَّة بيد المعتصم وجنده .

لقـد سقطت عمُّـوريَّـة بعـد أهمِّ معركـة عربيَّـة استخـدمت فيهـا أدوات الحصار الضَّخمة الكبيرة ، كالدبابات والمجانيق والسَّلالم والأبراج على اختلاف أشكالها وأنواعها ، وذلك بعـد حصـار دام خمسـة وخمسين

---

(١) الطبري ٦٨/٩ ، الكامل في التَّاريخ ٢٥٠/٥

(٢) اسمه : حسن ، غلام لأبي سعيد محمد بن يوسف ، « الطَّبري ٦٨/٩ » .

يوماً[١] ، من سادس رمضان إلى أواخر شوال سنة ٢٢٣ هـ .

ثم أمر المعتصم بطرح النَّار في عمُّوريَّة من سائر نواحيها ، فأُحرقت وهدمت ، وجاء ببابها الرئيسي إلى سامراء ، « وهو باق حتَّى الآن ، منصوب على أحد أبواب دار الخلافة ، وهو الباب الملاصق مسجد الجامع في القصر »[٢] .

وعاد بعدها المعتصم بغنائم كبيرة جداً إلى طَرَسوس ، ومنها إلى سامراء ، منتصراً ظافراً ، رادّاً على تيوفيل فعلته[٣] ، كاسراً مخالبه الَّتي تطاولت على زِبَطْرَة ، ومستجيباً لصيحة الهاشميَّة الحرَّة « وامعتصماه » ، جاءها على خيل بُلْق ، فخلَّصها وقتل الرُّومي الَّذي لطمها ، ثمَّ أمر ببناء زِبَطْرة وشحنها بالرجال والعتاد والميرة ، فرامها الرُّوم بعد ذلك فلم يقدروا عليها .

وازن وليام ميور في كتابه « الخلافة The Caliphate » ، ص ٥١٩ ، بين شفقة المعتصم على الشَّيخ الضَّعيف ، الَّذي غاص حماره

---

(١) الطبري ٧٠/٩ ، مآثر الإنافة ٢٢١/١ ، ابن خلدون ٢٦٤/٣ ، الكامل في التَّاريخ ٢٥٠/٥ ، وفي البداية والنهاية (خطأ) : ٢٥ يوماً .

(٢) تاريخ بغداد ٣٤٤/٣ ، الرَّوض المعطار ٤١٤ ، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٣١٥/٢٣

(٣) قال ابن خلدون ٢٦٤/٣ : « ولم يزل تيوفيل مُمَلَّكاً على الرُّوم إلى أن هلك سنة ٢٢٩ هـ ، في ولاية الواثق ، ونصَّبوا ابنه ميخائيل في كفالة أُمّه (ندورة) ، فأقامت عليهم ست سنين ، ثمَّ اتَّهمها ابنها ميخائيل بقمط من أقماطها وألزمها بيتها سنة ٢٣٣ هـ » .

في الوحل في يوم مطير ، وكيف نزل عن حصانه وهو أمير المؤمنين ، وأخرج الحمار من الطين ، وحمل الشَّوك فوضعه عليه ، وأمر بإعطاء هذا الشَّيخ أربعة آلاف درهم ، وبين مافعله المعتصم في عُمُوريَّة الَّتي انتصر فيها على الرُّوم البيزنطيين ، فقال : « ولقد رأى المعتصم من الشَّرف أن يضحِّي بمدينة زاهرة ، يبلغ سكانها مئتي ألف نسمة ، وتقدَّر ثروتها بالملايين ، ومع ذلك فقد نزل هذا الخليفة عن صهوة جواده ، ولوَّث رداءه ، ليخلّص شيخاً ضعيفاً ، وقع حماره في حفرة من الطِّين ، وأيُّ هذه الأفعال قد ذكرها بالسُّرور والغبطة حين ناداه مَلَك الموت ؟ » .

وهذه الموازنة منطق كثيرٍ من المستشرقين عندما كتبوا تاريخنا ، منطق التحامل والتغافل عن الأسباب الَّتي قادت المعتصم إلى فعلته ، ولو لم يتغافل « وليام ميور » عن مكاتبة بَابَك وتيوفيل : « فإن كنتَ تريد الغنيمة فانهض سريعاً إلى ماحولك من بلاده ـ بلاد المعتصم ـ فخذها ، فإنَّك لا تجد أحداً يمانعك عنها » ، ولو لم يتغافل أيضاً عمَّا فعله تيوفيل بعدها بأهل زِبَطْرَة : « فأسرهم ، وخرَّب بلدهم ، وأحرقها ، ومضى من فوره إلى مَلَطْيَة ، فأغار على أهلها ، وعلى أهل حصون من حصون المسلمين ، وسبى من المسلمات أكثر من ألف امرأة ، ومثّل بمن صار في يده من المسلمين ، وسمل أعينهم ، وقطع آذانهم وآنافهم » ، فلو لم يتغافل « ميور » عن هذا ، لعلم أن

مـا فعلـه المعتصم « معـاملـة بـالمثل » تمـامـاً ، وردٌّ على غـدر تيـوفيـل وتحدياته من جنس عمله ، وأنَّه قابل ملاك الموت بالوجه الَّذي قـابلـه به تيوفيل ، ولكن بفارق :

أن تيوفيل كان المعتـدي الغـادر ، بينـما ردَّ المعتصم على الاعتـداء والتَّطاول .

وأن تيـوفيـل لم يُـذْكر في التَّـاريـخ بعمـل فيـه صفـات الرّحمـة والشّفقة ، بينما سجَّل التَّاريخ للمعتصم موقفه الإنساني الرَّحيم ، عندمـا أنقذ الشيخ الهرم من مأزقه .

وأن تيـوفيـل سـاق قـومـه البيزنطيين إلى نصر سريـع خـاطف غـادر ، لم يقـدِّر عواقبـه ، مستغلاً وجود جيوش المسلمين حول البَـذِّ ، يحـاصرون بَـابَـك ، بينـما قـاد المعتصم قـومـه المسلمين إلى نصر حقيقي متكامل .

فتيوفيل قابل ملاك الموت بغدره ورعونته .

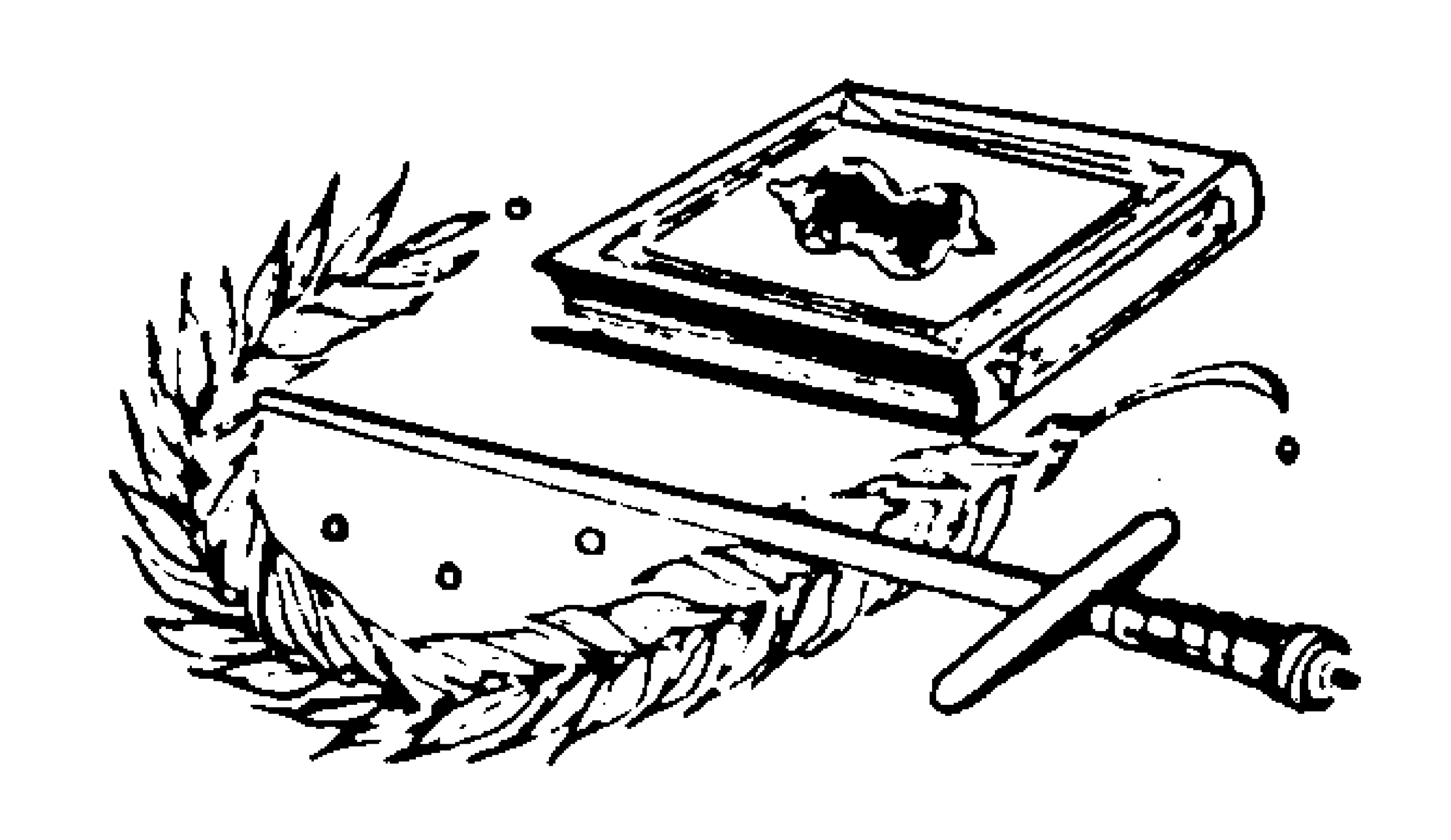
وقـابل المعتصم مـلاك المـوت بتـأديبـه للغـادر ، وبـوضعـه حـداً لرعونته ، مع إنسانيَّة ورحمة في كثيرٍ من أعماله .

و « ميـور » يـذكرنـا بـأمثـالـه من المستشرقين الحـاقـدين المتعصِّبين ..

فيوليوس فلهاوزن ، في معرض حديثه عن اليهود ، يقول : « حاول محمَّد أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد » ، مع أنَّهم فعلاً نكثوا العهود بإقرارهم .

وداڤيد صموئيل رجليوث ، يقول عن غزوة خيبر : « لم يرتكب أهلها في حقِّه - في حق رسول الله ﷺ - ولا في حقِّ أتباعه خطأ يعتبر تعدِّياً منهم جميعاً » ، مع أن وفدهم برئاسة حُيَيٍّ بن أخطب ، جعل لغطفان ، تحريضاً على الخروج لقتال المسلمين ، نصفَ تمر خيبر .

هذا - وأمثاله كثير - أُسلوب الحاقدين على تاريخنا العربي - الإسلامي ، يتغافلون عن الأحداث ، وينسون الأسباب ، وَيَزِنُون الأمور وإبهامهم على إحدى كفَّتي الميزان ، ثمَّ يقدِّمون أحكاماً يظنون بعدها أن الحقيقة فيما يكتبون ، والصَّواب والعلم فيما يستنتجون .



خَاتِمَةٌ

☆ كَرَّر أبو تمام إلقاء قصيدته ثلاثة أيام أمام المعتصم ، حتى قال له المعتصم : لِمَ تجلو علينا عجوزك ؟ ويجيب أبو تمام : حتَّى أستوفي مهرها يا أمير المؤمنين ، فأمر له عن كلّ بيت منها بألف .

ماسبق ، أحداث عمُّوريَّة كما سجَّلتها كتب التَّاريخ المعتمدة ، والقصائد الَّتي سجَّلت أحداث المعركة ، يمكن اعتمادها وثائق ثابتة ، خصوصاً عندما تتوافق نصوصها وما فيها من أحداث ، مع بقية الشَّواهد والأحداث الَّتي وردت في المصادر التاريخية . لذلك ، نورد هنا قصيدة أبي تمام[1] ، الَّتي كرَّر إلقاءها ثلاثة أيَّام أمام المعتصم

---

(١) أبو تَمَّام : حبيب بن أوس بن الحارث الطَّائي : [١٨٨ ـ ٢٣١ هـ = ٨٠٤ ـ ٨٤٦ م] ، الشَّاعر الأديب ، أحد أُمراء البيان ، ولد في جاسم (من قرى حوران بسورية) ، ورحل إلى مصر ، واستقدمه المعتصم إلى بغداد ، فأجازه وقدَّمه على شعراء وقته فأقام في العراق ، ثمَّ ولي بريد الموصل ، فلم يُتم سنتين حتى توفي بها ، كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع ، في شعره قوَّة وجزالة ، واختُلِفَ في التفضيل بينه وبين المتنبِّي والبحتري ، له تصانيف منها : « فحول الشعراء » ، و « ديوان الحماسة » ، و « مختار أشعار القبائل » ، [الأعلام ١٦٥/٢] .

وحوله المهنئون ، وعلية القوم ، حتى قال له المعتصم : لِمَ تجلو علينا عجوزك ؟ ويجيب أبو تمام : حتّى أستوفي مهرها يا أمير المؤمنين ، فأمر له بمئة وسبعين ألف درهم ، عن كلِّ بيت منها ألف[1] .

وهذه هي القصيدة ، كما جاءت في ديوان أبي تمام[2] :

١ ـ السَّيْفُ أصْدَقُ أنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ
في حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ

كان المَنَجِّمون قد حكموا أنَّ المعتصم لا يفتح عُموريَّة ، وراسلَتْه الرُّومُ بأنَّا نجد في كتبنا أنَّه لا تُفْتَح مدينتنا إلاَّ في وقت إدراك التين والعنب ، وبيننا وبين ذلك الوقت شهورٌ يمنعك من المقام بها البرد والثلج ، فأبى أن ينصرف ، وأكبَّ عليها ففتحها فأبطل ماقالوا .

« في حدِّه الحدُّ » الحدُّ الأوَّل للسيف ، والحدُّ الثاني الَّذي يفصل بين الشَّيئين .

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٢٣ ، والذي وصلنا من القصيدة واحد وسبعون بيتاً ، فإن كانت هذه الأبيات هي القصيدة كلّها ، فتكون العبارة الأخيرة : « فأمر له بواحد وسبعين ألف درهم ، عن كلِّ بيت منها ألف » .

(٢) بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزّام ، ذخائر العرب (٥) ، دار المعارف ١٩٦٤ ، الجزء الأول ، من صفحة ٤٠ ، إلى صفحة ٧٤ ، وقد اخترنا من شرح التبريزي بعضه .

٢ـ بيضُ الصَّفَائِحِ لا سُودُ الصَّحـائِفِ في
مُتـــونِهِنَّ جـــلاءُ الشَّـــكِّ والرِّيَبِ

« الصحيفـة » : الكتـاب ، و « الصفـائـح » جمـع صفيحـة وهي الحديدة العريضة ، ويُقال للسَّيف العريض كذلك .

٣ـ وَالعِلْمُ في شُهُبِ الأَرْمَـــاحِ لامِعَـــةً
بَيْنَ الْخَمِيسَيْن لا في السَّبعـــةِ الشُّهُبِ

« شهب الأرمـاح » : أسنتهـا ، ويعني بـ « السَّبعــةِ الشُّهُبِ » طوالع الكواكب والنجوم . و « الخميسان » : الجيشان ، ويقـال : إنَّ الجيش سُمِّي خميساً في زمـانٍ كانت الملوكُ إذا غـزت أخـذت خُمْسَ الغنيمة لأنفسهـا ، فـالخميس إذاً في معنى المخموس ، من قولهم : خَمَّسْتُ القومَ ، إذا أخذت خُمْسَ أموالهم[١] .

٤ـ أيْنَ الرِّوايَـةُ أمْ أيْنَ النُّجـومُ وَمَـا
صَاغُـوه مِنْ زُخْرُفٍ فيهـا ومِنْ كَـذِبِ

أصل « الزُّخرف » ما يعجبك من متاع الدنيـا ، وربمـا خُصَّ بـه الذَّهب .

(١) والأصح : قُسِّم الجيش إلى : قلب ، وميمنة ، وميسرة ، ومقدِّمة ، وساقـة ، ومن هنـا جـاء اسم « الخميس » للجيش ، أي خمس قطع .

٥ـ تَخَرُّصــاً وأحــاديثــاً مُلَفَّقَــةً
لَيْسَتْ بِنَبْــعٍ إذا عُــــدَّتْ ولا غَرَبِ

« التَّخَرُّص » : التكذيب وافتراء القول ، و « مُلفَّقة » : أي ضُمَّ بعضها إلى بعض وليست من شكل واحــد ، و « النَّبْـعُ » شجر صُلْب ينبت في رؤوس الجبــال وتتَّخــذ منــه القسِيّ ، وإذا وُصف الرجــل بـالجـلادة والصَّبر شُبِّـه بـالنَّبـع ، أي أنـه صُلب لا يُقْــدر على كسره ، و « الغَرَب » شجرٌ ينبت على الأنهار ليست له قوّة .

٦ـ عَجائِبـاً زَعَمُـوا الأيَّـامَ مُجْفِلَـةً[1]
عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأصْفــــــارِ أو رَجَبِ

« صفر الأصفار » ، عظَّم شأنـه لأنَّـه يُنتظر فيـه أمرٌ شـاق ، أي أخبروا أن أمــوراً تظهر في صفر أو رجب ، وأنَّ الأيـــــام تسرع في إظهارها .

٧ـ وخَـوَّفُـوا النَّـاسَ مِنْ دَهْيَـاءَ مُظْلِمَـةٍ
إذا بَـدَا الكَـوْكَبُ الغَرْبِيُّ ذُو الـذَّنَبِ[2]

---

(١) ويروى « مجفلة » و « مُجَلية » ، والمعنى متقارب : الذعر والهروب ، وانكشاف الموضع الـذي كان فيه .

(٢) ظهر مذنب هالي سنة ٢٢٣ هـ = ٨٣٧ م ، قبيل فتح عمورية ، الذي قال عنه ابن الأثير : وفي هذه السَّنة ظهر على يسار القبلة كوكب فبقي يُرى نحواً من أربعين ليلة ، وله شبه الـذَّنب ، وكان طويلاً جداً ، فهال الناس ذلك وعظم عليهم .

« دهياء » أي داهية ، وكانوا قد حكموا أنَّ طلوع ذلك الكوكب الموصوف يكون فتنة عظيمة وتغيُّرَ أمرٍ في الولايات ، فأنكر الشَّاعر ذلك من أحكامهم .

٨- وَصَيَّروا الأبْرُجَ العُلْيا مُرَتَّبَةً
ما كانَ مُنْقَلِباً أوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ

أي صَيَّروا التدبير للنجوم ، ويعني بـ « الأبرج » بروج السَّماء التي أوَّلُها الْحَمَلُ وآخرها الحوت . يحكمون في أخبارهم بهذه البروج إذا ورد عليهم خبر في وقت الطالع فيه برج ثابت حقَّقوه ، وإن كان الطالع برجاً منقلباً لم يحقِّقوه .

٩- يَقْضُونَ بالأمْرِ عَنْها وهِيَ غافِلَةٌ
ما دارَ في فَلَكٍ مِنْها وفي قُطُبِ

الفلك مدار النجوم الَّذي يضمُّها ، والقُطبُ كلُّ ما ثبتَ فدار عليه شيء .

١٠- لَوْ بَيَّنَتْ قَطُّ أمْراً قَبْلَ مَوْقِعِهِ
لَمْ تُخْفِ ما حَلَّ بالأوْثانِ وَالصُّلُبِ

لو بان بهذه البروجِ أمرٌ قبلَ موقعه ، لبانَ أمرُ هذا الفتح الذي لم يكن فتحٌ أجلَّ منه .

١١- فَتْحُ الفُتوحِ تَعالى أن يُحيطَ بِهِ
نَظْمٌ مِنْ الشِّعْرِ أو نَثْرٌ مِنَ الْخُطَبِ

« فتح الفتوح » يعني به فتح عمُّوريَّة .

١٢- فَتْحٌ تُفَتَّحُ أبوابُ السَّماءِ لَهُ
وَتَبْرُزُ الأَرْضُ في أثوابِها القُشُبِ

« تفتّح أبواب السماء له » أي بالغيث والرَّحمة ، و « القُشُب » جمع قشيب وهو الجديد .

١٣- يا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرَفَتْ
مِنْكَ الْمُنى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الْحَلَبِ

« حُفَّل » جمع حافل ، وهي التي حفل ضرعها باللبن .

١٤- أبقَيْتَ جَدَّ بَني الإسلامِ في صَعَدِ
والمشركينَ ودارَ الشِّرْكِ في صَبَبِ

« الْجَدُّ » هاهنا الحظ ، و « الصَّعَدُ » المكان الذي يُصعَدُ فيه ، و « الصَّبَبُ » المكان الذي يُنْصَبّ فيه ، أي يُنْحَدر .

١٥- أُمٌّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أن تُفْتَدَى جَعَلُوا
فِداءَها كُلَّ أُمٍّ مِنْهُمُ وَأبِ

« الأُمُّ » أصلُ الشيء ومعدنه ، فعمُّوريَّـة أمُّهم تجمعهم وتضمهم كما تضمُّ الأُم ولـدهـا ، فلو استطـاعوا لافتـدوا خرابهـا بكلِّ أُمٍّ لهم ولـدتهم وأب .

١٦ـ وبَرْزَةُ الوَجْهِ قَدْ أعْيَتْ رِيَـاضَتُهـا
كِسْرَى وصَـدَّتْ صُـدُوداً عَنْ أبي كَرِبِ

يقال امرأة برزة إذا كانت تخاطب الرِّجال ولا تَستَّرُ منهم ، وزعم قومٌ أنه يقال للْحَيِيَّة : بَرْزة ، يقول أبو تمـام : هي مع بروزهـا للنظر قد أعيت كسرى ، وأبو كرب كنية أحد التبابعـة . ومن ذهب إلى أنَّ البرزة الْحَيِيَّـة ، فـالمعنى أن هـذه البلـدة كانت كالمرأة الْمُتخفِّرة التي لا ينظر أحدٌ إليها .

١٧ـ بِكْرٌ فَما افترَعَتْهـا كفُّ حَـادِثَـةٍ
ولا تَرَقَّتْ إلَيْهـا هِمَّـةُ النُّـوَبِ

إنَّ هذه المدينة لم تُفتَح قبلَ هذا الفتح .

١٨ـ مِنْ عَهْدِ إسْكَنْدَرٍ أوْ قَبْلَ ذلكَ قَدْ
شَـابَتْ نَـواصِي اللَّيـالي وهْيَ لَمْ تَشِبِ

١٩ـ حَتَّى إذا مَخَّضَ اللهُ السِّنين لَهـا
مَخْضَ البَخِيلَـةِ كانتْ زُبْـدَةَ الحِقَبِ

حتَّى إذا جمع الله خيرات السِّنين وأظهرها ، وصارت هذه البلدة زبدة السنين أتتهم الكربة ، و « الحِقَب » جمع حقبة وهي السَّنة ، وقيل الحِقْبَةُ من الدَّهر : برهة غير محدودة ، إلاَّ أنها زمانٌ يطول .

ومعنى البيت : أنَّ هذه المدينة لما أغفلتها السّنون حتَّى زادت وحَسُنت فصارت زبدةً أتاهم المعتصم ففتحها .

٢٠ـ أتَتْهُمُ الكُرْبَةُ السَّوْدَاءُ سَادِرَةً
مِنْها وكانَ اسْمُها فَرَّاجَةَ الكُرَبِ

« سادرة » من سَدَرِ العَيْن ، يُقال : سَدِرَت عينه إذا أظلمت .

٢١ـ جَرَى لها الفألُ بَرْحاً يَوْمَ أنقِرَةٍ
إذْ غُودِرَتْ وَحْشَةَ السَّاحاتِ والرِّحَبِ

أكثر ما يجيء الفأل في معنى الخير ، ويجوز أن يقع على ما كان من خير وشَرّ ، وأنقِرَة[1] : في بلاد الرُّوم ، بلد به قبر امرئ القيس .

٢٢ـ لَمَّا رَأتْ أُخْتَها بِالأمْسِ قَدْ خَرِبَتْ
كانَ الْخَرابُ لَها أعْدَى مِنَ الْجَرَبِ

يريد بأُختها أنقرة ، أي أنها لما خربت وهي أُخت عمُّوريَّة أعدَتْها بالْجَرَب ، والْجَرَبُ يوصف بالعدوى .

(١) أنقِرَة (معجم البلدان ٢٧١/١) . وتروى بضم القاف وكسرها وفتحها .

٢٣ـ كَمْ بَيْنَ حِيطانِها مِنْ فَارِسٍ بَطَلٍ
قَــانِي الــذَّوائبِ مِنْ آني دَمٍ سَرِبِ

« قاني الذوائب » محمرُّها ، و « الآني » الحار ، و « سَرِب » أي سائل .

٢٤ـ بِسُنَّـةِ السَّيْفِ والحِنَّـاءُ مِنْ دَمِـهِ
لا سُنَّـةِ الـدِّينِ والإسْلامِ مُخْتَضِبِ

أي خُضِبَ شعره بسُنَّةِ السَّيفِ ، أي بما سنَّه وحكم به ، لا بسنَّةِ الإسلام ، لأنَّ الصحابة والتابعين كانوا يرون من السُّنَّةِ أن يخضِبُوا شعورهم بالحِنَّاء والكَتَم وما يجري مجراهما من نبات الأرض .

٢٥ـ لَقَـدْ تَرَكْتَ أميرَ الْمُـؤْمِنِينَ بِهـا
لِلنَّـارِ يَـوْمـاً ذَلِيـلَ الصَّخْرِ والْخَشَبِ

لقد أحرق المعتصم عمُّوريَّة ، فذل صخرها وخشبها للنار .

٢٦ـ غَادَرْتَ فيها بَهِيمَ اللَّيْلِ وهُوَ ضُحَىً
يَشُلُّـهُ وَسْطَهَـا صُبْـحٌ مِنَ اللَّهَبِ

« غادرتَ » أي تركتَ ، و « البهيم » أراد به الليلَ الذي لا ضوءَ فيه ، و « يَشُلُّه » أي يطرده ، يقول : كان ضوء النار يطرُد اللَّيلَ وهو كالإصباح لتوقُّدِه وتلهُّبه .

٢٧- حَتّى كَأنَّ جَلابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ
عَنْ لَوْنِها وكَأنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ

« جلابيب الدُّجى » يريد جمع جِلْباب ، وهو القميص أو الرِّداء ، واستعاره ها هنا للدُّجى وهو جمع دُجْيَة ، والدُّجْيَة : الظلمة

٢٨- ضَوْءٌ مِنَ النّارِ والظَّلْماءُ عاكِفَةٌ
وظُلْمَةٌ مِنْ دُخانٍ في ضُحىً شَحِبِ

ضوء النار يُصَيِّر الليلَ نهاراً ، وظلمة الدخان تُصَيِّر الضحى شَحِباً . والشاحب : الْمُتَغَيِّر .

٢٩- فالشَّمْسُ طالِعَةٌ مِنْ ذا وقَدْ أفَلَتْ
والشَّمْسُ واجِبَةٌ مِنْ ذا ولَمْ تَجِبِ

« من ذا » الأوَّل يعني به لهيبَ النَّار ، و « ذا » الثَّاني يريد به الدُّخان ، و « أفلت » غابَتْ ، ووجبت الشَّمس إذا سقطت في المغرب .

٣٠- تَصَرَّحَ الدَّهْرُ تَصْرِيحَ الغَمامِ لَها
عَنْ يَوْمِ هَيْجاءَ مِنْها طاهِرٍ جُنُبِ

« تَصَرَّحَ » تَفَعَّلَ من الصَّريح وهو الخالص ، أي تكشَّف الدَّهر كما يتكشَّف الغمام عن السَّماء ، ويعني بـ « طاهر جُنُب » أنَّ هذا اليومَ

كان مافُعِل فيه حِلاًّ لأنَّ الغزو مندوبٌ ، فهو طاهرٌ من هذا الوجه

٣١ـ لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ فيـهِ يَوْمَ ذاكَ على
بـــانٍ بـــأهْـل ولم تَغْرُبْ على عَـزَبِ

لم يُتْرَك منهم مَنْ كان بَنَى بـأهلـه لأنَّـه قُتل ، ولم يَبْقَ في هؤلاءِ عَزَبٌ لأنَّهم تزوَّجُوا السَّبْيَ .

٣٢ـ مـا رَبْـعُ مَيَّـةَ مَعْمُـوراً يُطِيفُ بِـهِ
غَيْـلانُ أبْهَى رُبىً مِنْ رَبْعِهـــا الْخَرِبِ

ما رَبْعُ ميَّةَ المعمور الذي أكثر وصف حُسْنه ذو الرِّمَّة بأحسن رُبى من هــذا الرَّبـع الخرب في عين مَنْ فتحهـا ، وغيـلان بن عقبــة هـو ذو الرِّمَّـة ، فكأن المعنى : مـا رَبْـعُ ميَّـةَ في نفس غَيْـلان أبهى من هـذا الرَّبع الخرِب في أعْيُن المسلمين ، و « الرُّبى » جمع ربوة ، وهـو المرتفـع من الأرض .

٣٣ـ ولا الْخُـدُودُ وَقَــدْ أُدْمِينَ مِنْ خَجَـلٍ
أشهى إلى نــاظِرٍ مِنْ خَـــدِّهــا التَّرِبِ

لما شَبَّه عمُّوريَّة بالمرأة وجعلها بكراً في بعض الأبيـات ، حَسُن أن يستعير لها خدّاً ، و « التَّرِبِ » الذي قد لَصِقَ بالتراب .

٣٤ـ سَماجَـةٌ غنِيَتْ مِنَّـا العُيـون بِهـا
عَنْ كلِّ حُسْنٍ بَـــدا أوْ مَنْظَرٍ عَجَبِ

« سماجة » : قُبْح ، يقول أبو تمام : خرابُ عُّموريَّـة سماجـةٌ عنـد أهلها ، وقـد استغنت عُيونُنـا عن كلِّ حُسْنٍ بهـا لأنَّهـا تَفُوق كلَّ حُسْنٍ في عُيونِ المسلمين الظافرين .

٣٥ـ وحُسْنُ مُنْقَلَبٍ تَبْـدُو عَـواقِبُـهُ
جَـاءَتْ بَشَـاشَتُـهُ مِنْ سُـوءِ مُنْقَلَبِ

حُسن المنقلب كان للمسلمين ، وسوء المنقلب كان لأعدائهم .

٣٦ـ لَـوْ يَعْلَمُ الكُفْرُ كَمْ مِنْ أعْصُرٍ كَمَنَتْ
لَـهُ العَـواقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ والقُضُبِ

أي كانـوا في تلـك الأعصر غـافلين عمـا حَـلَّ بهم من القتـل والتَّخريب .

٣٧ـ تَـدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بـاللهِ مُنْتَقِمٍ
للهِ مُرْتَقِبٍ في اللهِ مُرْتَغِبِ

« المرتقب » الذي يجعل ما يرقبه بين عينيه كأنَّه ينظر إليه ، و « مُرْتغب » أي يرغب فيما يُقرِّبه إلى الله تعالى .

٣٨ـ **ومُطْعَم النَّصْرِ لَمْ تَكْهَمْ أسِنَّتُـــــهُ**
يَــوْمــاً ولا حُجِبَتْ عَنْ رُوحِ مُحْتَجِبِ

« مُطْعِمِ النَّصْر » يعني الممدوح ، « لم تكْهَم » أي لم تَنْبُ ، وأصل الكَهَامِ في السَّيف ، وقد استعير لغيره .

٣٩ـ **لَمْ يَغْزُ قَـوْمـاً وَلَمْ يَنْهَـدْ إلى بَلَـدٍ**
إلاَّ تَقَـــدَّمَـــهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ

« لم يَنْهَد » أي لم ينهض إليه .

٤٠ـ **لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ الوَغَى لَغَدا**
مِنْ نَفْسِـهِ وَحْـدَهَـا في جَحْفَـلٍ لَجِبِ

« الجحفـل » الجيش العظيم ، ويقـال : رجـلٌ جحفــل إذا كان ضخم الأمر سيِّداً ، يُريـدون أنَّـه وحـده كأنَّـه جيشٌ لعظم شـأنــه ، و « اللَّجِبُ » الصَّخب الكثير الأصـوات ، و « الـوغى » الحرب ، وأصْلُه الصَّوتُ ، ثمَّ سُمِّيتِ الحربُ به .

٤١ـ **رَمَى بِـكَ اللهُ بُرْجَيْهـا فَهَـدَّمَهـا**
ولَـــوْ رَمَى بِـــكَ غَيْرُ اللهِ لَمْ يُصِبِ

أي كان قتالُكَ في الله مستنصراً لدينه ، ولو كان قتالك لغير دينِ اللهِ لم تُنْصَر عليهم ، ولم تُصِبْهم .

٤٢ـ مِنْ بَعْـدِ مـا أشَّبُـوهـا واثِقينَ بِهـا
واللهُ مِفْتـاحُ بَـابِ الْمَعْقِـلِ الأشِبِ

« أشَّبوهـا » صَعَّبوا أمرهـا ، وحقيقتُـه لفَّفُوا حولهـا الجنـد ، من قـولهم : تـأشَّبت الغيضـة التفَّت ، أي : منعـوهـا بـالرِّمـاح فصـارت كالشجر الملتف بالجمع الكثير .

٤٣ـ وقـال ذُو أمْرِهِمِ لا مَرْتَـعٌ صَـدَدٌ
للسَّـارِحينَ وليسَ الـوِرْدُ مِنْ كَثَّبِ

« الْمَرْتَـع » الموضـع الـذي ترتـع فيـه الرَّاعيـة ، و « الكَثَّب » القُرْبُ .

٤٤ـ أمـانِيـاً سَلَبَتْهُمْ نُجْحَ هـاجِسِهـا
ظُبَى السُّيـوفِ وأَطرافُ القَنـا السُّلُبِ

يقول أبو تمام : كان ذلك التقدير أمـانيـاً سلبتهم تصـديقهـا ظُبى السُّيوف ، أي حدُّها ، « والهـاجس » مـا يهجُس في الصَّدر من فكر ، و « القنا السُّلُب » يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون جمع سَلُوب ، كأنَّه يسلب النـاسَ أموالهم ، والآخر أن يكون جمع سَلبٍ وهـو الطـويـل ، يقال : رُمْحٌ سَلب .

٤٥ـ إنَّ الحِمَـــامَيْن مِنْ بِيضٍ ومِن سُمُرٍ
دَلْـوَا الْحَيـاتَيْنِ مِن مـاءٍ ومن عُشُبِ

يقـول : لاتنـال لـذَّة الأكل والشُّرب إلاَّ بـالرمـاح والسُّيـوف ، وضرب لهذا مثلاً فقال : هُما دَلْوا الْحَياتَيْن ، يعني أنّ الحِمامَيْن بالبيض والسُّمر دَلْوا الحياتين : الحياةِ بالماء والحياةِ بالنبات ، إذْ كان لابُدَّ منهما أو مِمَّا يُحيا بهما ، فكأنَّهما يستقيانِ هاتين كما يستقي الدلوان الماء .

٤٦ـ لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيّاً هَرَقْتَ لَـهُ
كَـأسَ الكَرَى ورُضَـابَ الْخُرَّدِ العُرُبِ

« زِبَطْرِيّ » منسوبٌ إلى زِبَطْرَةَ ، وهي بلـد فتحـه الرُّوم ، فبلغ المعتصم فيما قيـل أنَّ امرأةً قـالت في ذلـك اليـوم وهي مسبيَّـة : وامُعْتصماه ! فنقل إليه ذلك الحديث وفي يـده قَدَحٌ يريـد أن يشرب مافيه ، فوضعه وأمر بأن يُحفظ ، فلما رجع من فتح عمورية شَرِب ، و « الْخُرَّد » الحيِيَّات ، و « العُرُب » جمع عَرُوب وهي الْمُتَحبِّبة إلى زوجها .

٤٧ـ عَداكَ حَرُّ الثُّغُور الْمُسْتَضامَةِ عَنْ
بَرْدِ الثُّغُـور وعَنْ سَلْسَـالِهـا الْحَصِبِ

« الثُّغور » الأول جمع ثَغْر العـدو ، وهو الموضع الـذي يُخاف أن

يأتي منه ، و « الثغور » الثانية من ثَغْر الإنسان ، وأصل « السَّلسَال » الماء الصَّافي السهل الدخول في الْحَلْق ، و « الْحَصيبُ » الذي فيه الْحَصْباء وهو صغار الْحَصَى ، وإنما أراد بالسَّلسال الرِّيق ، وجعله حصباً لأنَّ فيه الأسنان ، و « عَداك » أي صرفك عن بَرْد هذا الرِّيق في ثغور الحسان ما في قلبك من أمر الثُّغور الَّتي أُبِيحَتْ وتمكن العدو منها .

٤٨ـ أجَبْتَهُ مُعْلِناً بِالسَّيْفِ مُنْصَلِتاً
وَلَوْ أجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجِبِ

السَّيف الصَّلت : المتجرِّد .

٤٩ـ حَتَّى تَرَكْتَ عَمُودَ الشِّرْكِ مُنْعَفِراً
وَلَمْ تُعَرِّجْ عَلى الأَوْتادِ والطُّنُبِ

« المنعفر » الملتصق بالتُّراب وهو العَفْر ، يقول أبو تمام : عمدت لأعظم شأنِ الرُّوم ولم تُعَرِّج على ما صغر من الأُمور .

٥٠ـ لَمَّا رَأى الْحَرْبَ رَأْيَ العَيْنِ تُوفَلِسٌ
والْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرَبِ

يستعمل « الْحَرَب » في معنى الغضب ، وفي معنى ذهاب المال ، وتوفلس يعني : تيوفيل .

٥١- غَـدا يُصَرِّفُ بِـالأمْـوالِ جِرْيَتَهـا
فَعَـزَّهُ البَحْرُ ذُو التَّيـارِ والْحَـدَبِ

« الْحَدَبُ » ارتفاع الماء تارةً وانخفاضُه .

٥٢- هَيْهاتَ ! زُعْزِعَتِ الأرضُ الوَقُورُ بِـهِ
عَنْ غَـزْوِ مُحْتَسِبٍ لا غَـزو مُكْتَسِبِ

« زعزعت » حُرِّكت حركة عنيفة ، والهاء في « بِهِ » راجعة على تيوفيل ، يقول : زعزعت الأرض به عن غزو هذا الملك الذي هو محتسب للأجر لا مكتسبٌ للمال .

٥٣- لم يُنفِـق الـذَّهَبَ الْمُرْبِي بكَثْرَتِـهِ
عَلى الْحَصَى وبِـهِ فَقْرٌ إلى الـذَّهَبِ

يخاطب تيوفيل ، يقول : لم ينفق الذهب الكثير الَّذي هو أكثر من الحصى رغبةً فيا تبذله من الذهب ، بل لينتقم منك ، ويقابلك بسوء صنيعك أو تَسْلم ، و « الْمُرْبِي » الزَّائد ، فقال : أربى عليه إذا زاد عليه .

٥٤- إنَّ الأُسُـودَ أُسُـودَ الغِيـلِ هِمَّتُهـا
يَـوْمَ الكَرِيهَـةِ في الْمَسْلـوبِ لا السَّلَبِ

جعل الممدوح غنياً غير محتاج إلى المال فيخدع به ليكفَّ عن

القتـال ، و « الكريهـة » الشـديـدة من كلِّ شيء ، والمراد بهـا الحربُ هنا .

٥٥ـ وَلّى وقَــدْ أَلجَمَ الْخَطِّيُّ مَنْطِقَــهُ
بِسَكْتَــةٍ تَحْتَهــا الأَحْشــاءُ في صَخَبِ

« ولَّى » يعني تيـوفيـل ، و « الخطِّي » الرُّمـح منسـوبٌ إلى الْخَـطِّ ، وهـو سيف عُمَـان ، و « ألجمـه » أي كان لـه كاللجـام ، و « الصَّخَب » أصلـه كثرة الكـلام في الغضب ، وأراد بـالصَّخب في البيت وجيب القلب من الفزع .

٥٦ـ أحْذَى قَرابينَه صَرْفَ الرَّدَى وَمَضى
يَحْتَثُّ أنْجَى مطــايــاهُ مِنَ الْهَرَبِ

« أحـذى » في معنى أعطى ، والمعنى : أعطى هـذا المنهزمُ صَرْفَ الرَّدى قرابينـه ، و « القرابين » جلسـاء الملـك ، واحـدهم قُربـان ، وقوله : « أنجى مطايا من الهرب » يريد أنَّ الهربَ أنجى مطاياه .

٥٧ـ مُـوَكَّـلاً بِيَفَـاعِ الأَرْضِ يُشرِفُـهُ
مِنْ خِفَّـةِ الْخَـوْفِ لا مِنْ خِفَّـةِ الطَّرَبِ

« يُشْرِفـه » أي يُشْرِف عليـه ، والمعنى : أنَّ هـذا الرَّجـل يعلـو ماارتفع من الأرض لينظر إلى الطرق هل فيها من يتبعه .

٥٨ـ إنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّها عَدْوَ الظَّلِيمِ فَقَدْ
أوْسَعْتَ جاحِمَها مِنْ كَثْرَةِ الْحَطَبِ

« الظليم » ذَكَرُ النَّعام ، وهم يصفونه بالنِّفار والسُّرعة ، و « الْجَحْمَةُ » معظم النار ، ومنه الجحيم ، وهذا مثل ضربه لشدة الحرب واضطرامها ، و « الجاحم » الذي يُسَعِّرها ، يقول : خلَّفت بها جيشك يقتلون من فيها ، فجعلهم حطباً لنيران الحرب .

٥٩ـ تِسْعُونَ ألْفاً كآسادِ الشَّرى نَضِجَتْ
أعْمارُهُمْ قَبْلَ نُضْجِ التِّينِ والعِنَبِ

وفي رواية « نَضِجَتْ جلودهم » .

٦٠ـ يا رُبَّ حَوْباءَ لَمَّا اجْتُثَّ دابِرُهُمْ
طابَتْ ولَوْ ضُمِّخَتْ بِالمِسْكِ لم تَطِبِ

« الْحَوْباء » النَّفس ، و « اجتُثَّ دابرهم » أي قُطِع أصلهم ، وقيل : استؤصِل آخرهم ، والمعنيان متقاربان ، و « التضميخ » الاطِّلاء بالطِّيب ، و « طابت » : من الطِّيب الذي هو سرور النفس .

٦١ـ ومُغْضَبٍ رَجَعَتْ بِيضُ السُّيُوفِ بِهِ
حَيَّ الرِّضا من رَدَاهُمْ مَيِّتَ الغَضَبِ

أي ورُبَّ مُغْضبٍ على الكُفْر رَدَّه الظَّفرُ بهم[1] .

٦٢ـ والْحَرْبُ قـائمـةٌ في مـأْزِقٍ لَجِـجٍ
تَجْثُـو القِيـامُ بِـهِ صُغْراً عَلَى الرُّكَبِ

« المأزِقُ » أصلـه من الأزق وهو الضِّيق ، و « لَجِج » من قولهم : لَجِجَ في الشيء إذا نشب فيه فلم يَخْلُص[2] .

٦٣ـ كَمْ نِيلَ تحت سَناها مِنْ سَنا قَمَرٍ
وتَحْتَ عـارِضِها مِنْ عَـارِضٍ شَنِبِ

« تحت سناها » أي سنا الحرب ، وهو ضوؤها ، « من سنـا قمر » أي من ضوء جارية كالقمر سُبيَتْ ، و « عارضها » أي عـارض الحرب التي تمطر المنـايـا ، وقـولـه : « من عـارض شنب » يعني عـارض الأسنان ، يقال للناب والضِّرس الذي يليه : عـارض ، والشَّنَبِ : بَرْد الأسنان ، ويقال : حدَّة أطرافها .

---

(١) ذكر الخارزنجي وجهين لمعنى البيت : أحدهما موافق لشرح التبريزي ، والآخر هو : يقول ورب ملك عظيم منهم كان مغضباً مغتاظاً على المسلمين فأوقعت السُّيوف به ، فأحيت رضاه من إهلاكها إياه ، وأماتت غضبه .

(٢) ويروى « تجثو الكماة به » ، والكماة جمع كَمِيٍّ ، وهو الذي قد كَمَى نفسه بالسِّلاح ، وكأنّه جَمْعُ كامٍ .

٦٤ـ كَمْ كانَ في قَطْعِ أسْبابِ الرِّقـابِ بِهـا
إلى الْمُخَــدَّرَةِ العَــذْراءِ مِنْ سَبَبِ

« الأسبـاب » الأشيـاء التي يتوصل بهـا إلى غيرهـا ، و « أسبـاب الرِّقاب » يعني مافيها من العروق ، شَبَّهها بـالحبـال ، و « المخـدَّرة » ذات الخِدْر .

٦٥ـ كم أحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْـدِيِّ مُصْلَتَـةً
تَهْتَـــزُّ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَـــزُّ في كُثُبِ

يريـد قُضُبَ الحـديـد الهنـدي ، أو قضب الصَّنَع الهنـديِّ أو نحـو ذلك ، ويقال للسَّيف الـدَّقيق العَرْض : قضيب وهو ضِـدّ الصَّفيحـة ، ويعني بـ « قُضُب » الثانية قـدوداً تشَبَّـه بـالقُضُب ، و « كُثُبٍ » جمع كثيب من الرمل ، أي هذه القضب في أعجاز مثل الكثب .

٦٦ـ بِيضٌ إذا انتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِها رَجَعَتْ
أحَـقُّ بـالبِيضِ أتْرابـاً مِنَ الْحُجُبِ

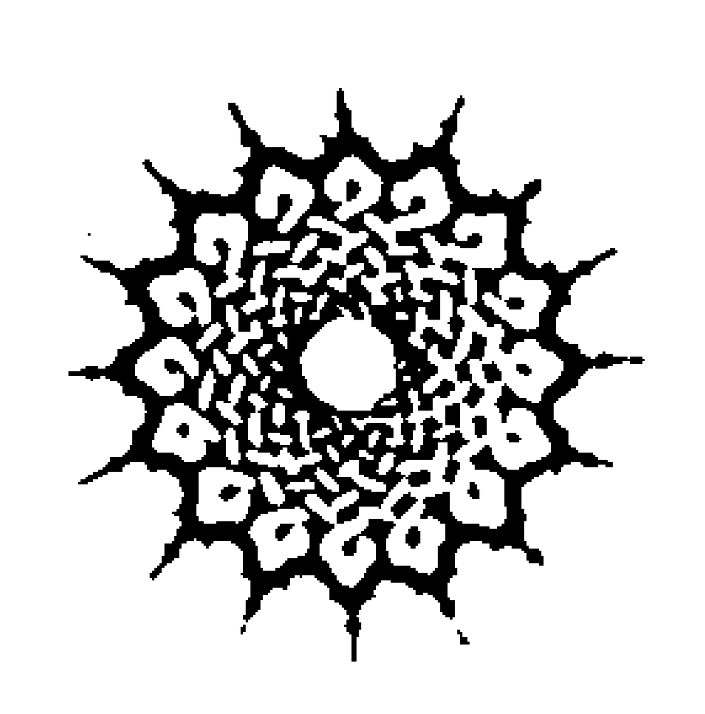
« انتُضِيَتْ » سُلَّت ، و « حُجْبِهـا » أغمـادهـا ، و « الْحُجُب » الثاني حجال النِّساء ، و « أتراب » جمع تِرْب .

٦٧- خَليفَةَ اللهِ[1] جازَى اللهُ سَعْيَكَ عَنْ
جُرْثُومَةِ الدِّينِ والإسْلامِ والْحَسَبِ

جرثومة الشيء أصله .

٦٨- بَصُرْتَ بالرَّاحَةِ الكُبرى فلَمْ تَرَها
تُنالُ إلاَّ عَلى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ
٦٩- إنْ كانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِن رَحِمٍ
مَوْصُولَةٍ أوْ ذِمامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ
٧٠- فَبَيْنَ أيامِكَ اللاَّتي نُصِرْتَ بِها
وَبَيْنَ أيَّامِ بَدْرٍ أقْرَبُ النَّسَبِ
٧١- أبْقَتْ بَني الأصْفَرِ المِمْراضِ كاسمِهِم
صُفْرَ الوجُوهِ وجَلَّتْ أوْجُهَ العَرَبِ

« بنو الأصفر » هم الرُّوم .



(١) إضافة تشريف ، مثل : ناقة الله .

الْمَصَادِرُ والمراجع

١ ـ الإيضاح والتِّبيان في معرفة المكيال والميزان ، نجم الدين بن الرفعة الأنصاري ، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م

٢ ـ البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير ، مكتبة المعارف ـ بيروت

٣ ـ تاريخ بغداد « أو مدينة السَّلام » ، أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي ـ بيروت

٤ ـ تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢ م

٥ ـ تاريخ الشُّعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان ، دار العلم للملايين ـ بيروت

٦ ـ تاريخ الرُّسل والملوك ، محمد بن جرير الطبري ، ذخائر العرب : ٣٠، دار المعارف ١٩٦٠ م

٧ ـ تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ، دار صادر ـ بيروت

٨ ـ ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزّام (ذخائر العرب : ٥) ، دار المعارف ١٩٦٤ م

٩ ـ الرَّوض المعطار في أخبار الأقطار ، محمد بن عبد المنعم الحميري ، مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠ م

١٠ ـ شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن العماد الحنبلي ، دار المسيرة ـ بيروت

١١ ـ العبر «تاريخ ابن خلدون» ، عبد الرحمن بن خلدون ، دار البيان

١٢ ـ العقد الفريد ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، القاهرة، طبعة ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٥ م

١٣ ـ الفخري في الآداب السُّلطانية ، أحمد بن علي بن طباطبا ، دار صادر ـ بيروت
١٤ ـ الكامل في التاريخ ، ابن الأثير الجزري ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٨ هـ
١٥ ـ كتاب المنَّق في أخبار قريش ، محمد بن حبيب البغدادي ، طبعة الهند ـ حيدرآباد ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م
١٦ ـ مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، القلقشندي ، عالم الكتب ـ بيروت
١٧ ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ابن منظور ، دار الفكر ـ دمشق ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م
١٨ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، علي بن الحسين بن علي المسعودي ، دار الفكر ـ بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م
١٩ ـ معجم البلدان ، شهاب الدين ياقوت الحموي ، دار صادر ـ بيروت ١٩٨٠ م
٢٠ ـ الملل والنِّحل ، الشهرستاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م
٢١ ـ النجوم الزَّاهرة ، يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، المؤسسة المصرية العامَّة
٢٢ ـ وفيات الأعيان ، ابن خلِّكان ، دار صادر ـ بيروت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م

المحتوى

☆ ☆ ☆

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٠/١٢/١٩٨٨م

عدد النسخ (٢٠٠٠)